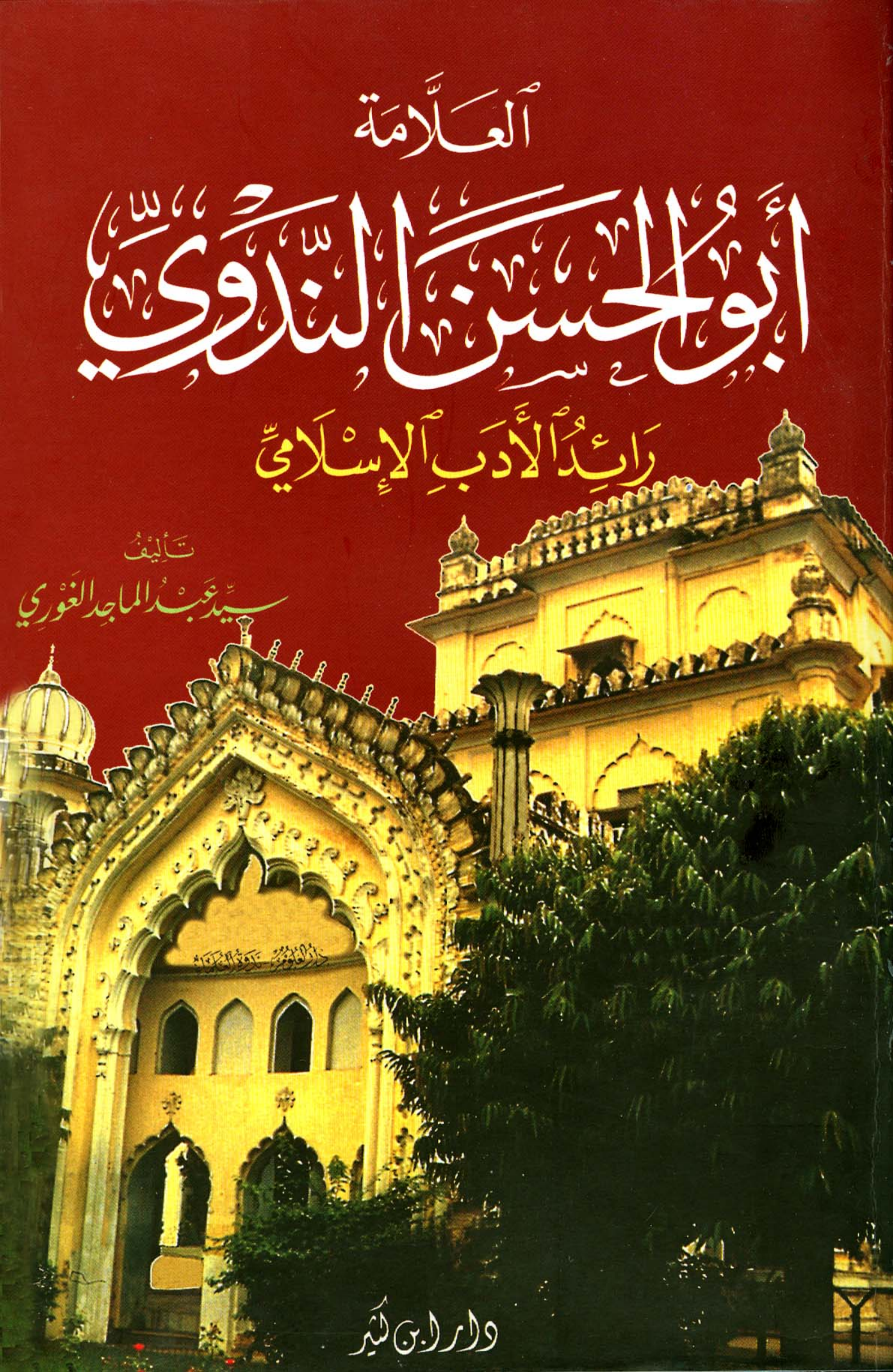

العلامة
أبو الحسن الندوي
رائد الأدب الإسلامي
تأليف
سيد عبد الماجد الغوري
دار ابن كثير

العلامة

أبو الحسن الندوي

رائد الأدب الإسلامي

تأليف

سيد عبد الماجد الغوري





الطبعة الأولى
1430 هـ ـ 2009 م

دار ابن كثير
للطباعة و النشر و التوزيع
دمشق ـ بيروت

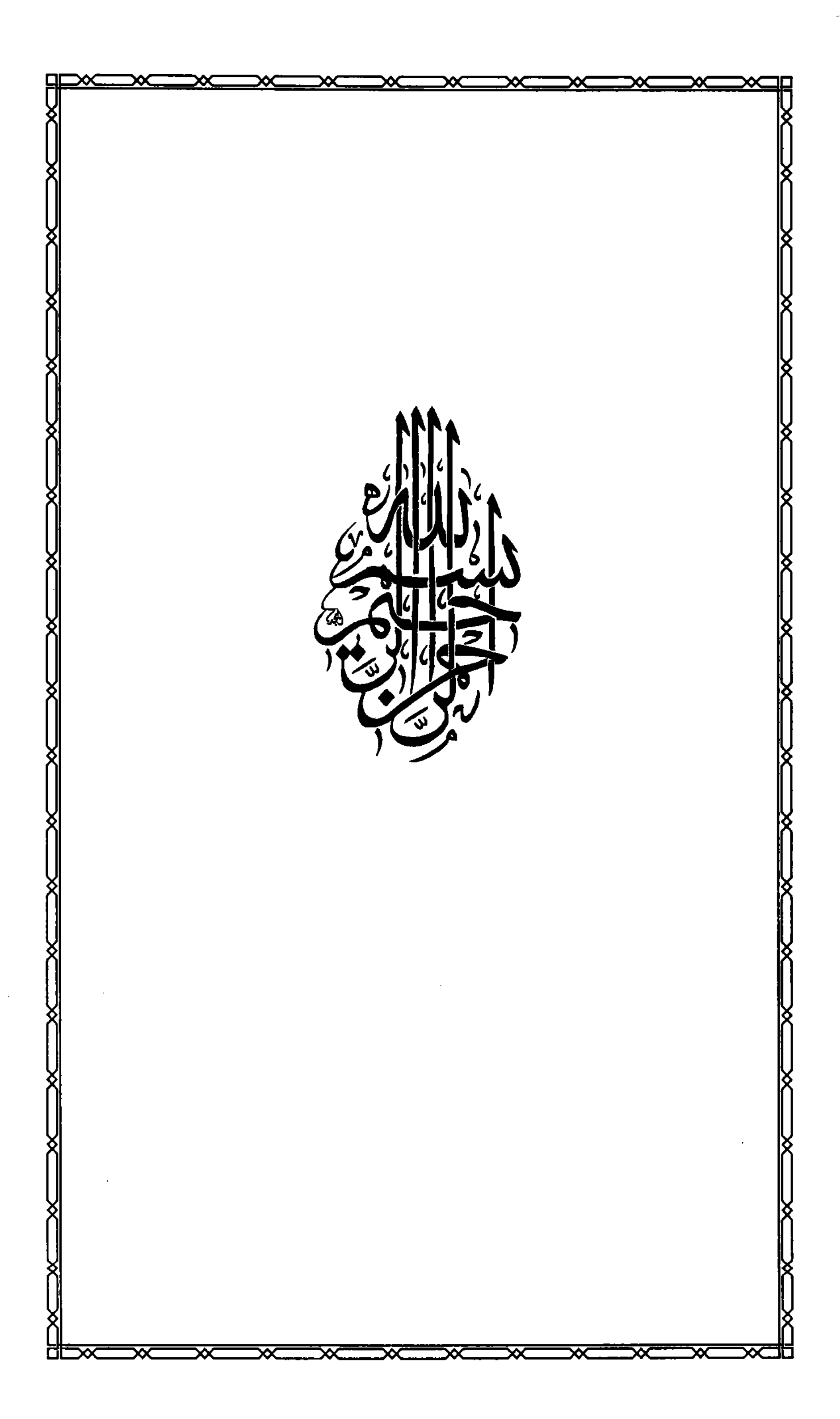
ردمك : 978-9953-520-21-6
الموضوع : أدب
العنوان : أبو الحسن الندوي رائد الأدب الإسلامي
التأليف : سيد عبد الماجد الغوري
الورق : أبيض
ألوان الطباعة : لون واحد
عدد الصفحات : 192
القياس : 17×24
التجليد : غلاف
الوزن : 275 غ

التنفيذ الطباعي : مطبعة بشار الحلبي- دمشق
التجليد : مؤسسة القصيباتي للتجليد - دمشق



دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي
ص.ب : 311 ـ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
مكتب تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة
ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 ـ جوال : 03/204459
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الكتاب

الحمد لله ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسول الله ﷺ .

وبعد : فقد عرف الناسُ العلامة أبا الحسن الندوي في مشارق الأرض ومغاربها داعيةً إلى الله ومجدِّداً كبيراً ؛ إذ جمع في شخصيته الفذَّة بين الإيمان الراسخ والعلم الغزير الوافر ، وعاش حياته آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر بهمة وعزيمة لا تعرف الخور أو الفتور ، ولا تعترف بلغة الأمتار والأميال فعلى مدى نصف قرن لمْ يزل في غُدوٍّ ورواح ـ رَغم كِبَر السن والمرض ـ ما بين الخافقين يخاطب المسلمين في قضاياهم الصعبة ، ويشخِّص الأدواء ، ويرسم الحلول .

ومثلما عَرفوه داعيةً إلى الله عرفوه مفكِّراً إسلامياً كبيراً ، همُّه وقضيته « الإسلام » يعيش به وله ، فلا يعرض للعالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه أيُّ حادثٍ إلّا ويصبُّ عليه اهتمامه ، فيتأمَّل ويحلِّل ، ويفند ويعالج ، ويرتيء الحل ، ويقترح الدواء المناسب ، تلمح فيه ـ على الدوام ـ الانشغال بالقضايا الكبيرة عن المسائل الصغيرة ، وشُغل بالحقائق عن الصُّور ، وتمسُّك باللباب ، وترفُّع عن القشور والجزئيات والخلافيات .

ولكنّ الناسَ لم يعرفوه حقَّ المعرفة ـ سِوى القليلين منهم ـ أديباً عملاقاً في العربية ، يبدع في كتاباته ومختاراته وأحاديثه ، ويحنو على التراث العربي في واحاته النائية ، وأديباً أتى في مجال الأدب الإسلامي

والعربي بالعجائب والغرائب عَجَزَ عن مثلها نوابغ الأدباء المعاصرين ، وأديباً يكتب في أسلوبٍ أدبيٍّ رصينٍ في غاية الروعة والجمال ، جمع بين بلاغة الأولين وسهولة المتأخرين .

وكلُّ هذا يُحسُّ به من يقرأ كتاباته ، فيلمس فيها بلاغته العربية ، وقدرته البيانية ، في ألفاظه المنتقاة ، وعباراته الرشيقه ، بعيدةً عن الكُلَف ونقيةً من الكَلَف .

ويُحسُّ به من كان يسمع خطاباته المرتجلة في المؤتمرات ، وكلماته البليغة في المجالس : أنَّه لا يتحيَّف فيها بيانَه عجمةٌ ، ولا تعترض فيها لسانَه عُقدةٌ ، تخرج من قلبه وتحمل الفكرة بطريق مختصر ، وتدعمها بشواهد مناسبة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، ونوادر الشعر ، وطَرائف الأقوال وأنْفس الأمثال ، لتصبَّ في وجدان السامع فتُثير عواطفه ، وتملأ قلبه فتجيش خواطره .

ويُحسّ بملامح متميزة في شخصيته الأدبية مَنْ كان يحضر الندوات العالمية السنوية لرابطة الأدب الإسلامي ـ التي كان يترأَسُها منذ تأسيسها ـ ، ويبدو له فيها فهمه العميق المتميِّز للأدب ، ويسمع آراءه القيِّمة في طبيعة الأدب ووظيفته ، وتقويمه للأدب العربيِّ المعاصر ، وتستوقفه نظراته النافذة ، وتأمّلاته العميقة ، وإدراكه المرهف لدقائق المشكلات في الأدب الإسلامي والعربي .

كان يرى العلامة الندوي : أن الأدب مثل الحياة تحت ظِلِّ الإسلام ، ولا يرى أنَّه وسيلة للحصول على الثروة ، ولنيل السمعة أو التكسب أو التسلية ، بل هو رسالة سامية ، وهكذا تمنى العلاَّمة أن يسود الأدبَ الإخلاصُ والصدق والقوة والحياة والعاطفة والوجدان والخلود ، وهكذا جاءت كتاباته سواء العربية أو الأردية ، فهو أديب اللغتين بلا منازع[1] .

---

(١) الأدب الأردي الإسلامي : للأستاذ الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم، ص(٦٥٧) .

وإذا أردنا أن نقدم مثالاً على تفوقه في الأدبين معاً فلنقرأ ما كتبه بالأردية ، فقد صدر هذا الأدب من داخله ، صدر عن عاطفة وعن عقيدة وعن فكر واقتناع ، وما أروع العلامةَ حين كتب في مختاراته موضِّحاً هذه الفكرة :

« كان هؤلاء الكتَّاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرةٌ ، أو عقيدةٌ يكتبون لأنفسهم ، يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين ، فتشتعل مواهبهم وينبض خاطرهم ويتحرق قلبهم فتنهال عليهم المعاني ، وتطاوعهم الألفاظ ، وتؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها ، لأنها أخرجت من القلب فلا تستقر إلا في القلب . . .

أمَّا هؤلاء المتصنِّعون فإنهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثِّلين قد يمثِّلون الملوك ، ويضعون أبهة الملك ومظاهره ، وقد يمثِّلون الصعلوك ، فيتظاهرون بالقوة ، وقد يمثِّلون السعيد ، وقد يمثِّلون الشقي من غير أن يذوقوا لهذه السعادة طعماً أو يكتووا بنار الشقاء . وعلى العكس من ذلك اقرأ ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه الحافظ ابن قيِّم الجوزية في كتبهم ؛ تَرَ مثالاً رائعاً للكتابات الأدبية الرفيعة تتدفَّق قوَّة وحياة وتأثيراً ، ذلك هو الأدب الحي الخليق بالبقاء ، ولا سبب لذلك إلا أنه كتب عن عقيدة ، وعاطفة »[١] .

أثرى العلامةُ الندوي الأدبَ الأردي ، والأدب العربي الإسلامي على السواء بكتاباته التي ظهرت باللغتين ، وقد بدأ ينشر إنتاجه الفكري باللغة العربية عام ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م حين أصدر كتابه : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟! » ، وبعدها عرفَهُ العالم العربي ، وبدأ يلقي محاضراته هنا وهناك ، وعمل أستاذاً زائراً بجامعة دمشق ، والمدينة المنورة ، وعين عضواً في أكثر من مؤسسة ومنظمة إسلامية ، ومجمع لغوي . ومن هنا جاء إنتاجه الأدبي مكتوباً تارة بالعربية أولاً ، ثم بالأردية ، وتارة بالأردية ، ثم بالعربية ، وهذا يجعلنا نختصر الحديث

---

(١) مختارات من أدب العرب : للعلامة الندوي (١/ ١٧ ـ ١٨) .

ـ وإن مع اختصاره هو وسيعٌ ـ في هذا الباب ؛ لأن القارىء العربي يستطيع أن يتعرف على مؤلَّفات العلامة من خلال ما نشر بالعربية .

سيجد القارى في هذا الكتاب آراءه القيمة ، وأفكاره النفيسة ، وتوجيهاته السديدة التي وراءها اطلاعاته الواسعة ، وتجاربه العميقة ، وفراسته العالية ، وجهوده الحثيثة في الأدب الإسلامي .

كتبه

المعتز بالله تعالىٰ

سيِّد عَبْدُ الماجِد الغَوْرِي

ترجمة
العلّامة أبي الحسن النَّدْوي

هو المربِّي العظيم ، والداعية الحكيم ، والمفكِّر المجدِّد ، والأديب البارع ، والكاتب القدير ، وعلاَّمة الهند ، وربَّانِيُّ الأمَّة ، ونموذج السَّلف ، والعالِم العامل ، والحبر الكامل ، والزَّاهدُ المجاهد : الشيخ السيِّد أبو الحسن علي الحسني الندوي ، صاحبُ الكُتب الفائقة ، والرَّسائل الرائقة ، والمحاضرات النافعة ، « والذي أجمع عليه السلفيُّون ، والمتصوِّفون ، والمذهبيون ، واللاَّمذهبيون ، والتقليديون ، والمعاصرون »[1] ، و« الذي أخلص وجهَه لله تعالى ، وسار في حياته سيرةَ المسلم المُخلِص لله تعالىٰ ورسوله ﷺ ، فدعا إلى الإسلام بالقُدوة الحسنة ، ودعا إلى الإسلام بكُتبه النقية ، ودعا إلى الإسلام بسياحته التي حاضر فيها ، ووجَّه وأرشدَ »[2] ، و« الذي [كان] ذخراً للإسلام ودعوته . وكُتبه ومؤلَّفاته تتميَّز بالدِّقة العلمية ، وبالغوص العميق في تفهُّم أسرار الشريعة ، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي ووسائل

---

(١) قاله فقيه الدعاة ، وداعية الفقهاء : الدكتور يوسف القرضاوي .

(٢) قاله شيخ الأزهر الأسبق : الدكتور عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ.

معالجتها »[1] ، و« الذي عرفتُه في شخصيته وفي قلمه ، فعرفتُ فيه قلبَ المسلم ، والعقلَ المسلم ، وعرفتُ فيه الرجلَ الذي يعيشُ بالإسلام وللإسلام على فقهٍ جيِّدٍ للإسلام . . . هذه شهادةٌ لله أودعها »[2] ، و« الذي [كان] مدرسة فكرية افتقدها العالمُ الإسلاميُّ برحيله »[3] .

اسمه ونسبه وأسرته :

هو عليُّ أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأَشْتَر بن محمّد ذي النَّفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنَّى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

أوَّل من استَوْطَنَ الهندَ من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٧٧٦ هـ) .

والده مؤرِّخ الهند الكبير العلاَّمة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني ، الذي استحقَّ بجدارة لقب « ابن خلِّكان الهند » لمؤلَّفه القيم « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » في ثماني مجلَّدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً[4] باسم « الإعلام بمَن في تاريخ الهند من الأعلام » .

---

(١) قاله الداعية الفقيه ، الصابر المجاهد : الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ .

(٢) قاله الأديب الكبير ، الداعية الشهيد : سيد قطب .

(٣) قاله الدكتور عبد الله المحسن التركي ، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

(٤) في ثلاث مجلَّدات ضخمة ، في دار ابن حزم ، بيروت .

أمَّا والِدتُه ـ رحمها الله ـ فكانت من السيِّدات الفاضلات ، المربيات النادرات ، المؤلِّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعرَ ، وقد نظمتْ مجموعةً من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

مولده ونشأته :

أبصَرَ العلاَّمةُ أبو الحسن الندوي النورَ في ٦ محرم ١٣٣٣هـ (الموافق عام ١٩١٤م) بقرية « تَكِيَة كَلاَن » الواقعة قُرْب مديرية « رَائي بَرِيْلِي » في الولاية الشمالية « أُتْرَابَرْدِيْش » .

بَدَأَ دراستَه الابتدائية بالقرآن الكريم في البيت ، ثم دَخَلَ في الكُتَّاب حيث تعلَّم مبادىءَ اللغتين (الأردوية والفارسية) شأنَ أبناء البيوتات الشريفة في الهند في ذلك العصر ، وكان عمره يتراوح بين التاسعة والعاشرة إذ تُوفِّي والده الجليل عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) . فتوَلَّى تربيتَه أمُّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني[1] وإليه يرجع الفضلُ في توجيه وتربية العلامة الندوي .

بَدَأَ دراستَه العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني[2] في أواخر عام ١٩٢٤م ، وتخرَّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّعَ فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين

---

(١) انظر ما كتب عنه العلاَّمة الندوي في كتابه « شخصيات وكُتب » ص (٦٣) ، طبع دار القلم بدمشق .

(٢) انظر ترجمته في « من أعلام المسلمين ومشاهيرهم » ص (٢٨١) طبع دار ابن كثير ، بدمشق .

الهلالي المرَّاكشي[1] عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م .

دراسته الجامعيَّة :

التحَقَ بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونال منها شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كُتباً تُعتبر في القمَّة العربية والأردوية ، ممَّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقَّفة بالثقافة العصرية ، وتعلَّمَ الإنجليزية مما مكَّنته من قراءة الكتب المؤلَّفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

ثمَّ التحَقَ بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديثَ الشريف (صحيح البخاري ، ومسلم ، وسنن أبي داود ، وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاَّمة المحدِّث الشيخ حيدر حسن خان الطُّوْنَكِي[2] ، ودرس التفسيرَ لكامل القرآن الكريم على العلاَّمة المفسِّر المشهور أحمد علي اللاَّهُوري في لاهور عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م ، وحضر دروسَ العلاّمة

(١) هو العلاَّمة البحَّاثة ، وأحد كبار علماء اللغة العربية في هذا العصر ، وُلِدَ بسجلماسة في المغرب ، ونشأ نشأة صوفية ، ثم تركها واتخذ السلفيةَ معتقداً ، سافر إلى الهند وقرأ الحديث على كبار محدِّثيها يومئذ ، وعيِّن أستاذاً خلال إقامته فيها في كلية اللغة العربية في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، توفي ـ رحمه الله ـ بالدار البيضاء عام ١٤٠٧هـ .

(٢) انظر ترجمته في « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للعلاَّمة عبد الحي الحسني ، (٣/ ١٢١٨) ، طبع دار ابن حزم ، بيروت .

المجاهد حسين أحمد المَدَني[1] في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

في سِلْك التدريس :

انخرَطَ في سلك التدريس عام ١٩٣٤م ، وعُيِّنَ أستاذاً في دار العلوم ـ ندوة العلماء لمادَّتي التفسير والأدب .

واستفاد خلال تدريسه في دار العلوم من الصُّحف والمجلاَّت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعُلمائها وأدبائها ومفكّريها عن كثب ، واستفاد أيضاً مِن كُتب المعاصرين من الدعاة والمفكّرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيِّين .

نشاطاته الدعويَّـة والإصلاحية :

قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م ، تعرَّفَ فيها على الشيخ المربِّي العارف بالله عبد القادر الرَّأي فُوْرِي[2] ، والداعية إلى الله الشيخ محمد إلياس الكَانْدَهْلَوِي[3] ، وكان هذا التعرُّف نقطةَ تحوُّل في حياته ، وبَقِيَ على الصلة بهما حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتَلَقَّى التربية الروحية من الشيخ الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتأَسَّى بالشيخ الكاندهلوي

---

(١) انظر ترجمته في كتاب « من أعلام المسلمين ومشاهيرهم » ص (٢٣٩) .
(٢) انظر ترجمته في « من أعلام المسلمين ومشاهيرهم » ص (٢٥٩) .
(٣) انظر ترجمته في « من أعلام المسلمين ومشاهيرهم » ص (٢٣٣) .

في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجمتع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلاميه لتنظيم حلقات دروس القرآن الكريم والسنَّة النبوية عام ١٩٤٣م ، وأسَّس حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩م .

شارَكَ في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢م .

رحلتُه مع الكتابة والتأليف :

كَتَبَ أوّلَ مقالٍ بالعربية في مجلَّة « المنار » للعلاّمة السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره ـ آنذاك ـ أربعة عشر عاماً ، ثم نشره العلاّمة رشيد رضا ككتاب مستقل لمَّا رأى إعجاب كبار كتَّاب العرب به .

ظهَرَ له أوّلُ كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧م يحمل اسمَه : « سيرة أحمد شهيد » ونَالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان ، وصدر له طبعاتٌ عديدةٌ فيما بعد .

بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَرَ أوّلُ كتاب

فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠م ، و« قصص النبيِّين » للأطفال و« القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م ، وقرِّرت جميع هذه الكتب في مقرَّرات المعاهد والجامعات الإسلامية في بلاد العرب وشبه القارة الهندية .

أَلَّفَ كتابَه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » عام ١٩٤٤م ، الذي عُدَّ من أفضل الكُتب التي صدرت في هذا القرن[1] .

دُعِيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة بجامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألْقى محاضرات بعنوان « التجديد والمجدِّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشِرتْ بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ في أربع مجلَّدات باسم : « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

أَلَّفَ كتابه حول القَادِيَانية بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية » عام ١٩٦٥م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧م ، و« السيرة النبوية » عام ١٩٧٦م ، و« العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠م و« المُرْتضىٰ » في سِيرة أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عام ١٩٨٨م .

رئاسته لتحرير المجلاَّت والجرائد الإسلامية والإشراف عليها :

شارَكَ في تحرير مجلّة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم

---

(١) كما قال المربِّي المفكِّر ، الداعية الناقد البصير : الأستاذ محمد المبارك ـ رحمه الله ـ .

ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢م ومجلّة « الندوة » الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠م ، وأَصْدَرَ مجلّة باسم « تَعْمِيْرِحَيَات » بالأردوية عام ١٩٤٨م ، وكتب مقالاتٍ في الأدب والدعوة والفكر في أمَّهات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ، ودمشق كـ : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيّات و« الفتح » للأستاذ محب الدين الخطيب و« حضارة الإسلام » للدكتور مصطفى السِّباعي و« المسلمون » للدكتور سعيد رمضان المصري .

أشْرَفَ على إصدار جريدة « نَدَاي مِلَّتْ » بالأردوية عام ١٩٦٢م ، وأشرف كذلك على إصدار مجلّة « البعث الإسلامي » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥م ، وجريدة « الرائد » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م ، ومجلة « تعميرحيات » الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م ، وكلُّها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند) .

رحـــلاته :

سافَرَ إلى الشرق والغرب داعيةً إلى الله بالحِكْمة والموعظة الحسنة ، عامِلاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المَسْمُوعة ، والمقروءة ، وبالعمل الإيجابيّ البنَّاء في كُلِّ مجال، جوَّاباً للآفاق في سبيل الله، محاضِراً، ومحدِّثاً، ومُحَاوِراً ، واعِظاً وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسَّسات الإسلامية ، والمؤتمرات ، والندوات فيها[١] .

---

(١) اقرأْ للاطلاع على رحلاته الدعويَّة في الخافقين كتاب « رحلات العلامة أبي =

تقدير وتكريم :

انتخَبَه مجمعُ اللغة العربية بدمشق ، والقاهرة ، والأردن عضواً مراسلاً لما اتَّصف به من العِلْم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثَّفة المشكورة في الأدب العَربي الإسلامي .

اخْتِير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م .

اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .

اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلَّفه القيِّم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » .

مُنح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كَشْمِيْر عام ١٩٨١م .

اختير رئيساً لمركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣م .

اختير عضواً في المجمع المَلكِيّ لبحوث الحضارة الإسلامية ، وللبحث والتأليف ، والتحقيق في عمّان (الأردن) .

اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤م .

= الحسن علي الحسني الندوي ـ مشاهداته ـ محاضراته ـ انطباعاته ـ لقاءاته » إعداد المؤلِّف ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

أُقِيمَتْ ندوةٌ أدبيةٌ كبيرةٌ حول حياته ، وجُهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب في إستانبول « تُركيا » عام ١٩٩٩م ، حضرت فيها كبرى الشخصيات الدينية ، والأدبية من أنحاء العالم العربي والإسلامي .

اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقدَّمَ إليه الجائزةَ وليُّ العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سُمُوّ الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

منح له سلطان بروناي جائزةً لخدماته الإسلامية عام ١٩٩٨م ، وذلك اعترافاً بمكانته العلمية والفكرية الإسلامية العظيمة ، وتقديراً لخدماته المتميزة التي أنجزها في مجال الدعوة الإسلامية العظيمة ، والفكر الإسلامي .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

توَلَّى العلامةُ الندوي الرئاسةَ والعضوية لعِدَّة جامعات إسلامية ، ومجامع عربية، ومنظَّمات دعوية ، ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (الّتي أخذت صفةَ العالمية منذ ترأَّسَ أمانَتها ، وتفَوَّقَتْ على معظم جامعات العالم الّتي تَهْتَمُّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العِلْمِي في لكهنؤ (الهند) .

رئيس مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعُموم الهند .

رئيس هيئة التعليم الدِّيني للولاية الشمالية (أُتْرَابَرْدِيْش) .

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية الأردني .

عضو المجمع المَلَكِيّ لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسَّسة آل البيت) بالأردن .

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرِّباط (المغرب) .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسْلاَم آبَادْ (باكستان) .

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم دِيُوْبَنْد الإسلامية (الهند) .

وعدا ذلك تولَّى العلامةُ الرئاسةَ ، والعضويةَ لكثير من الجامعات

الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظَّمات الدعوية ، ولِجَان التعليم والتربية في العالم الإسلامي ، وخارجه .

وفاتـــه :

تُوُفِّيَ ـ رحمه الله ـ عَقِبَ نوبةٍ قلبيةٍ مفاجِئةٍ عن السادسة والثمانين من عمره الحافل بالأعمال القيمة والمآثر العظيمة ، والخدمات الجليلة في مجال الفكر ، والدَّعوة ، والأدب يومَ الجمعة في ٢٣ من شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٠هـ (وكان آخر يوم من شهر ديسمبر عام ١٩٩٩م) في مسقط رأسه « رَائي بَرِيْلي » .

صُلِّي عليه في أنحاء العالم الإسلامي صلاة الغائب ، وصلَّى كذلك حوالي خمسة ملايين من المسلمين الوافدين من مختلف أصقاع العالم في الحرمين الشريفين في ٢٧ رمضان بعد صلاة العِشاء . رحمه اللهُ رحمةً واسعةً ، وتغمَّده بها ، وأسكنه فسيح جنانه !

خَلْقُه وخُلُقُه :

كان ـ رحمه الله ـ نحيفَ البدن ، ونحيل العود ، نقيَّ اللون ، وقوراً مهيباً في غير عبوس ، أو فظاظة ، طَلْقَ الوجه ، دائم البِشْر ، نظراته عميقةٌ نفاذة ، ونبراته دقيقة أخَّاذة ، فيها بحة .

كان جمَّ التواضع، هادئاً، محباً للخير ، ودوداً محبوباً من كافة الطبقات.

كان خيرَ مثلٍ للعالم الورع الخلوق ، الذي يضمر الخير للجميع ، كان مثالاً في النزاهة ، والتواضع ، والجرأة النادرة في

الدعوة إلى الإصلاح ، وفي الاستقامة ، والحرص على الحقِّ .

كان عدوّاً للمظاهر الكاذبة ، يتخفَّف في ثيابه وطعامه وفراشه ، ويكره التكلُّفَ والمجاملة الزائدة ، ولا يُقِيم للمال وزناً في حياته ، كانت ثقته بربِّه فوق كلِّ شيءٍ ، وكانت مثابرته على النضال في سبيل ما يُؤمن به مضرب الأمثال ، وإخلاصه العميق كان سرَّ نجاحه ، بينما يفشل الآخرون .

كان دائمَ المطالعة ، حريصاً على صحبة الكتاب في خلواته وأوقات فراغه ، وكان شديد الاهتمام والعناية بكتب السيرة ـ على صاحبها ألف ألف سلام ـ وبكتب السلف ، والتاريخ ، والأدب .

كان فصيحَ اللسان ، بليغ الكلام ، وكان يمتاز بتمكُّنٍ عجيبٍ من اللغة العربية ، وتذوُّقٍ رفيعٍ للأدب ، وكانت تراكيبه اللفظية تلفت السامع ، وتستهوي القلب ، وكان يغلب على أسلوبه العنصر العاطفي الملتهب ، ومع ذلك إذا طرق بابَ البحث ؛ أجاد ، وأفاد ، وأمتع .

كان شديدَ العبادة والاجتهاد في رمضان ، وكان يؤمُّه مئاتٌ من الناس من أنحاء الهند ويصومون معه ويقومون ، ويتحوَّل المكان الذي يقضي فيه رمضان إلى زاويةٍ عامرةٍ بالذكر والتلاوة ، والسهر والعبادة .

كان مِن أعظم آماله ـ رحمه الله ـ أن يرى الإسلامَ سائداً على الأرض ، وأن يرى الدول الباغية مقهورة حتى يسلِّي نفسه ويستبشر ، وأن يرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلامَ ، وأذلُّوا المسلمين .

مؤلَّفاته :

للعلاَّمة الندوي ـ رحمه الله ـ مؤلَّفاتٌ قيمة ، ورسائلُ ممتعةٌ في السيرة ، والفكر ، والدَّعوة ، والأدب ، والتراجم ، نذكر هُنا ما هو الأشهر منها بالعربيَّة :

١ ـ السيرة النبوية .

٢ ـ الطريق إلى المدينة .

٣ ـ سيرة خاتم النبيين صلَّى الله عليه وسلَّم (للمبتدئين) .

٤ ـ المُرتضىٰ (في سيرة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه) .

٥ ـ رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام (أربع مجلَّدات) .

٦ ـ الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله .

٧ ـ شخصياتٌ وكُتبٌ .

٨ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟!

٩ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية .

١٠ ـ الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية .

١١ ـ إلى الإسلام من جديد .

١٢ ـ المسلمون وقضية فلسطين .

١٣ ـ روائعُ من أدب الدعوة في القرآن والسيرة .

١٤ ـ الأركان الأربعة في ضوء القرآن والسنة .

١٥ ـ العقيدة والعبادة والسُّلوك .

١٦ ـ التربية الإسلامية الحُرَّة .

١٧ ـ المدخل إلى الدراسات القرآنية .

١٨ ـ المدخل إلى دراسات الحديث .

١٩ ـ ربَّانيةٌ لا رهبانيَّة .

٢٠ ـ القاديانية والقادياني دراسةٌ وتحليلٌ .

٢١ ـ في مسيرة الحياة (ثلاثة أجزاء في سيرته الذاتية) .

٢٢ ـ مختاراتٌ من أدب العرب (مجلَّدتان) .

٢٣ ـ روائع إقبال .

٢٤ ـ إذا هبَّت ريحُ الإيمان .

٢٥ ـ المسلمون في الهند .

٢٦ ـ مذكِّرات سائح في الشرق العربي .

٢٧ ـ قصص النبيِّين (للأطفال) .

٢٨ ـ قصصٌ من التاريخ الإسلامي (للأطفال) .

وللعلاَّمة غير هذه المؤلَّفات والكُتب ـ مئاتُ المقالات والمحاضرات والبُحوث في السيرة النبوية ، والفكر ، والدَّعوة ، والأدب ، والتراجم ، وفي موضوعات مختلفة ، وقد جمعناها ، ونشرناها مصحَّحةً ، ومنقَّحةً في سلسلة « تُراث العلاَّمة الندوي » فقد صدر منها حتى الآن :

١ ـ محاضراتٌ إسلاميةٌ في الفكر والدَّعوة (ثلاث مجلَّدات) .

٢ ـ مقالاتٌ إسلاميةٌ في الفكر والدَّعوة (مجلَّدتان) .

٣ ـ دراساتٌ قُرآنيةٌ .

٤ ـ مقالاتٌ في السيرة النبوية .

٥ ـ من أعلام المسلمين ومشاهيرهم .

٦ ـ أبحاثٌ في التعليم والتربية الإسلامية .

٧ ـ أبحاثٌ في الحضارة الإسلامية والتربية .

٨ ـ بحوثٌ في الاستشراق والمستشرقين .

٩ ـ رحلات العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

١٠ ـ مكانة المرأة في الإسلام .

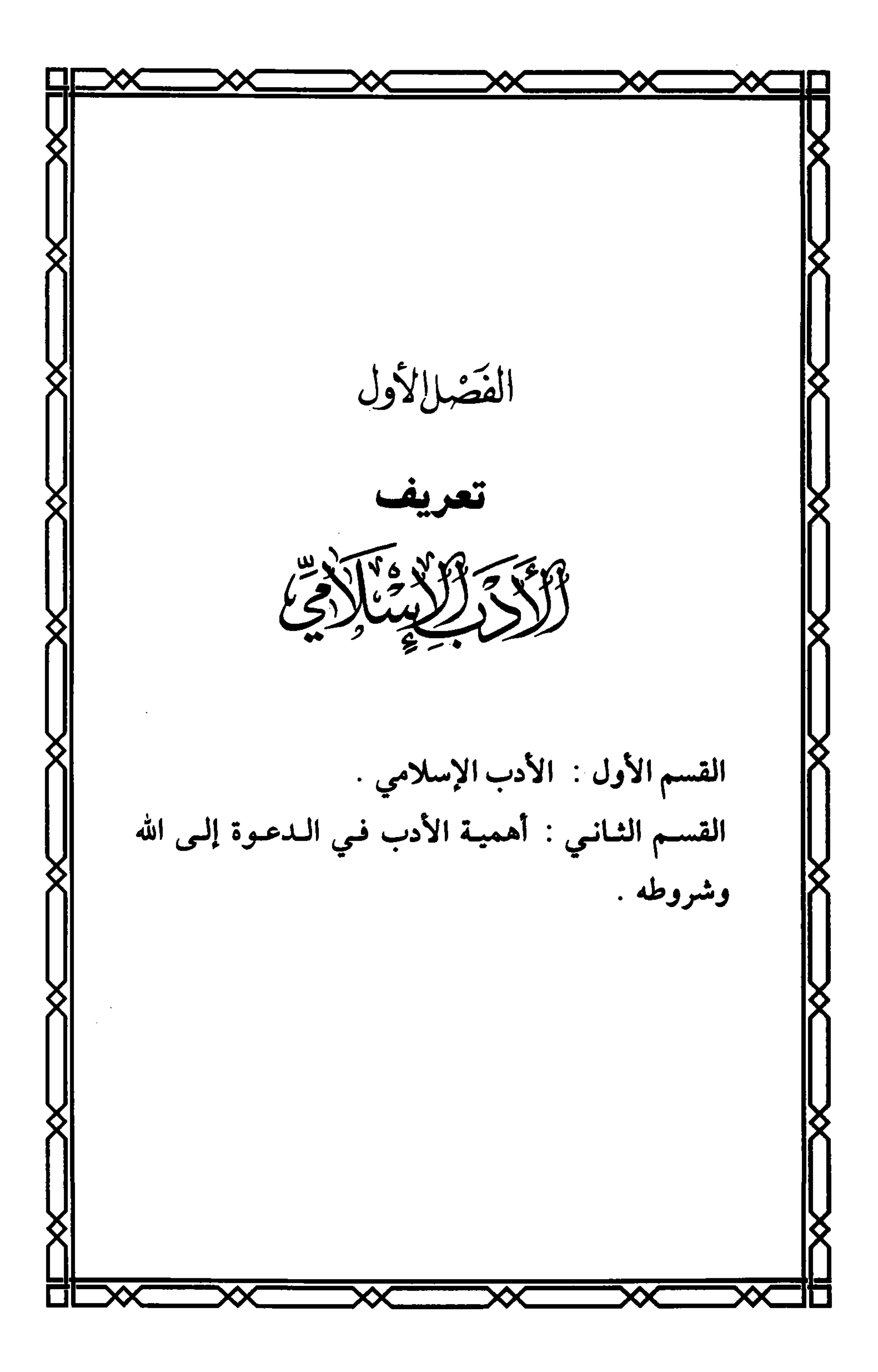
١١ ـ خطابات صريحة إلى الأمراء والرُّؤساء .

١٢ ـ اسْمَعِيَّات[١] .

١٣ ـ مقدِّمات العلامة أبي الحسن الندوي (ثلاث مجلَّدات) .

---

(١) من يريد الاستزادةَ من الاطلاع على حياته وشخصيته داعيةً ، ومفكِّراً ، ومربِّياً ، وأديباً ؛ يرجع إلى كتابنا : « أبو الحسن علي الندوي الإمام المفكِّر الداعية المربِّي الأديب » (الطبعة الثالثة) ، طبع في دار ابن كثير بدمشق .



الفَصْل الأول

تعريف

الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ

القسم الأول : الأدب الإسلامي .

القسم الثاني : أهمية الأدب في الدعوة إلى الله وشروطه .



القسم الأول :

الأدب الإسلامي

لقد ظنَّ كثيرٌ من الناس : أن الأدب إذا كان جاهلياً فاسقاً ؛ كان عريقاً في أدبيته ، وإذا كان دينياً ؛ لم يستحق أن يدعى أدباً ؛ لأنه خلا من المتعة واللهو . صحيحٌ أن الأدب قد يكون فاسقاً ولكن الفسق ليس من مقوِّمات الأدب ، ولا من خصائصه اللائقة مهما كثر ذلك في النصوص الأدبية ، ومهما اشتدَّ إقبال الناس عليه ، كما أن الأدب قد يغلب عليه طابع الدين ويصبغه بصبغته ، ولكن ذلك لا يفقده القوة والجمال .

أمَّا بالنسبة إلى الإسلام فالأدب قد يكون مغلوباً بالصبغة الدينية ، كما يكون في الابتهالات ، والدعاء ، والوعظ الديني ، وقد يكون في إطار الحياة العامة الملتزمة بالإسلام ، والحياة في الإسلام حياة واسعة تتسع مع تنوع الحاجات الإنسانية وأحوالها وشؤونها ، ولذلك لا يعجز الأدب في الإسلام عن تلبية حاجات الإنسان الطبيعية ولا عن التمثيل لصور الحياة الإنسانية المتنوعة الكثيرة .

ولا يشعر في الأدب الإسلامي بعجز أو قصور إلا الذين يتَّهمون الإسلام نفسه بالعجز والقصور مع أن الإسلام منه براء ، وخير مثل في ذلك حياة الرسول ﷺ ، فقد كانت حياة إنسانية حافلة شاملة ،

وقد صوَّرها لنا أدبه ﷺ وأحسن تصويرها ، ولها نماذج متنوعة وكثيرة[1] .

الأدب الإسلامي وصلته بالحياة :

الأدب يمثِّل الحياة ويصوِّرها ، ويعرض على القارىء والسامع صُوراً تنعكس وتبدو من مجالات العيش المختلفة ، ويعرض عرضاً جميلاً ومؤثِّراً لشتى جوانبها وأشكالها ، فتبدو فيه ملامح الكون والحياة وأشكالها المتنوعة ، فعندما يفوتنا النظر إلى الحياة مباشرة ننظر إليها ونشاهدها في مرآة الأدب شريطة أن يجيد الأدب عمله وتصدق من صاحبه مقدرته وتحسن ملكته ، وبذلك يصبح الأدب سبباً لتخليد أحداث الحياة وصُورها ، فهي تلمس وتشاهد ولو بعد وقوعها بزمن بعيد إذا بقيت العبارة المصوِّرة لها ، وبقي التعبير الفنِّي الجميل عنها ، وبقيت معانيها وكلماتها مفهومة مثلما كانت مفهومة في أوانها .

فبالأدب يصل الإنسانُ إلى فهم ظواهر الحياة وتذوُّق كيفياتها ، وقد يكون هذا الفهم والتذوُّق أحسن وأقوى من فهمها وتذوقها مباشرة بغير واسطة الأدب ، ولو أن الظواهر الحقيقية هي أقرب منالًا ، ومن السهل أن تسبر أغوارها بصورة مباشرة ، ولكن الأدب ينوب عن ذلك مناباً كبيراً وواسعاً إذا اختفت أو غابت الظواهر الحقيقية والوقائع العملية .

ويتسع الأدبُ باتساع الحياة ، وتتعدد جوانبه ونواحيه كما تتعدد

---

(١) الأدب الإسلامي وصلته بالحياة : للأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ، ص(٥ ـ ٦) .

جوانب الحياة ونواحيها ، ويستطيع به القارىء أو السامع أن يطلَّ على حياة البعيدين في المكان ، أو السالفين في الزمان مهما قدم تاريخهم ، أو بعدت أوطانهم .

صلة الأدب بالإسلام :

ومِن أغزر اللغات أدباً وأطولها عمراً هي اللغة العربية وآدابها ، فإنَّ امتدادها لا يقصر عن خمسة عشر قرناً بالتواصل والتوالي ، لم تنقطع هذه اللغة ولا آدابها في هذا الامتداد مدَّةً ، ولم تنسحب عن المجال الأدبي غير أنه قد اعتورها في عهود مختلفة ضعفٌ واستكانةٌ لأسباب متغيرة وطارئة ، وكان الإسلامُ أقوى واردٍ على اللغة العربية وعلى آدابها ، ولقد تلقَّاه الأدب وحمله بل وتزغَّم به ، وأصبح لباساً مطابقاً له ، واحتمل مسؤولية عرضه وتقديمه ، فقد كان رسولُ هذا الدين محمد بن عبد الله ﷺ وهو الداعي الأعظم للإسلام من أكثر أهل هذه اللغة وآدابها قوةً وإجادةً ، لم يكن قائلاً للشعر ، ولكنه كان مجيداً لفهمه ومتذوِّقاً لمحاسنه ، أما النثر الأدبي فقد كان ﷺ أروع الناس جميعاً كلاماً فيه ، وفهماً له .

ثم إنَّ الدين الإسلامي لم يكن ديناً قاصراً محدوداً في العبادات وحدها حتى يقال عنه : إنه إذا سايره أدبٌ كان أدباً منحصراً في العبادات وحدها ، بل إنما الإسلام هو الدين الفريد الذي اتسع كاتساع الإنسان ، وامتد كامتداد حياته ، ولم يتعارض إلا مع ما يتعارض مع مصلحة الحياة الإنسانية ذاتها ومع ذوقها الجميل ، وإنه إذا تعارض ؛ فيتعارض مع عمليات الهدم ، والإخلال بصالح الإنسان وإنسانيته .

فلم يكن للعمل الأدبي أن يجد صعوبةً في منادمة الإسلام ومسايرته ، ولم يكن له عائقاً عن أن يجد تحقيقاً لأهدافه في تصوير جوانب الحياة المتلائمة مع الإسلام .

بين الأدب الإسلامي وغير الإسلامي :

فموضعُ الاختلاف بين الأدب الإسلامي وغيره من أجناس الأدب هو في رعاية مصلحة الحياة الإنسانية وعدم رعايتها ، حيث إن الأدب الإسلامي يرى مجالات العمل في الكون والحياة ، ويميِّز بين اللائق بإنسانية الإنسان وغير اللائق بها ، فهو أدب ملتزم في هذا المعنى ، ولكنه ملتزم بالمفيد الصالح لا بالجمود والتقليد .

أمَّا الأدبُ غير الإسلامي ؛ فهو لا يبالي بمجالات العمل في الكون والحياة ، يدخل في كل مكان مثل البهيمة الهاملة ترعى فيما تشاء، ولا تفرِّق بين الصافي والعفن، والطيب والخبيث ، ولا تبالي بالفرق بين المراعي الفائحة ، والقاذورات النتنة ، الأدب الإسلامي لا يحب هتك العورات ، ولا إثارة الشهوات ، فهو أدب هادف نافع .

أمَّا الأدب غير الإسلامي فلا يبالي أين وقع ، وماذا أفسد ؟! بل إنه حينما يجرِّد نفسه من الالتزام يرى أحب مجالات عمله كلَّ صورة مثيرة للعواطف ، وكلَّ معنى يغذِّي النزوات مهما أتى به في إثره من فساد وانهيار .

وهذا هو موضع الخلاف بين الأدب الإسلامي والأدب غير الإسلامي ، الأدب الإسلامي يتلقى روحه وهدايته من الإسلام ، ومن حياة نبيِّ الإسلام .

والأدب غير الإسلامي يتلقى روحه وإرشاده من هوى الإنسان ، وحياة كل هائم من الحيوان .

وليس صحيحاً أن الأدب بعد التزامه بالإسلام يصبح محدوداً وقاصراً ؛ لأننا حينما نشطب جانب الفساد والقبح من الحياة فالذي يبقى بعده في الأدب هو واسع وكثير ومتنوع الجوانب ومختلف الصور والأشكال ، ولن يشعر الممارس له والمستفيد به أيَّ قصور فيه لقضاء حاجته من الأدب ، بل إنما يجده يخدمه في كل ما يعنيه في حياته .

سَعة الأدب الإسلامي :

فقد اشتمَلَ الأدب الإسلامي على الشعور بالألم والسرور ، وعلى السَّخط والرضا ، وعلى الغضب واللطف ، وعلى البكاء والضحك ، وعلى الكراهية والحب ، وعلى الجِدِّ والمزاح ، وعلى الشقاء واللذة ، وعلى العقل والوجدان ، وعلى الحكمة واللعب .

وهو يصوِّر سلوك الصديق مع الصديق ، وسلوك الرجل مع المرأة ، ويصوِّر انفعال الرجل في الأحداث ، وشعوره للعواطف ، وتأثره بكل مؤثِّر ، واستجابته لكل ظاهرة مسترعية للانتباه .

وهو يشتمل على التاريخ والسيرة ، وعلى القصة والرسالة ، وعلى الخطبة والحوار ، وعلى الوصف والتصوير ، وعلى التعبير المؤثِّر الجميل ، وهو نثرٌ سلسٌ ، وشعرٌ رائع ، وصُورٌ زاهيةٌ للأسلوب الأدبي ، وهو تقريع وعتاب ، وتطريب وإمتاع ، وبيان وإفهام ، إنه مرآة كلامية للحياة الإنسانية في أحوالها النفسية وأحوالها الكونية ، غير أنه يتجنب في كل ذلك القذارة والفساد ؛ وذلك لأن

الإسلام ليس ديناً بالمعنى الذي راج ، وعَمَّ في الديانات الأخرى في العالم ؛ حيث لا يتسع الدين في نظرها اتساع الحياة ، ويدل على صحة ما قلت سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد عمت على جوانب الحياة كلها ، ففيها شؤون وشجون ذات اتصال بالأحوال الفردية ، وبعلاقة الرجل مع زوجه ، والصديق مع صديقه ، والمواطن بجاره المواطن ، وصلة الخصم بخصمه ، والعدوُّ مع عدوِّه ، وفيها الحديث عن النفس ، وعن المجتمع ، وعن الحياة .

وهذه كلُّها خامات الأدب الإنساني البليغ ، وحيث إنَّ الدين الإسلامي يشتمل على كل ذلك فالحديث البليغ عن كل ذلك يستحق أن يدعى أدباً بل وأدباً عظيماً ، وأن ينظر إليها بتقدير واستفادة ، وهو لكونه تعبيراً عن ظواهر الحياة الإسلامية ، أو مصطبغاً بالصبغة الإسلامية يستحق أن يسمَّى أدباً إسلامياً ؛ لأنه أدبٌ يمثِّل الحياة الإسلامية ، أو أدبٌ إسلاميٌّ يمثِّل الحياة[1] .

* * *

---

(١) الأدب الإسلامي وصلته بالحياة : ص(١٧ ـ ٢٥) .

القسم الثاني :

أهمية الأدب في الدعوة إلى الله وشروطه

لقد قدَّمَ الباحث الإسلامي الكبير ، الداعية الشهيد الأستاذ سيِّد قطب تعريفاً للأدب ليجمع عناصره الأساسية بقوله : « هو التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية » وشرح أجزاء التعريف بقوله : « فكلمة تعبير » تصوِّر لنا طبيعة العمل ، ونوعه ، و « تجربة شعورية » تبيِّن مادته وموضوعه ، و « صورة موحية » تحدِّد لنا شرطه وغايته[١] .

وعرَّفه الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ محمّد قطب بقوله : « هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصوُّر الإسلام لهذا الوجود »[٢] .

وعرَّفه فقيد الأدب الإسلامي الدكتور عبد الرحمن رأفت باشا تعريفاً أكثر توضيحاً وتفصيلاً بقوله : « هو التعبير الفني الهادف عن واقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب تعبيراً ينبع من التصور الإسلامي للخالق عزَّ وجلَّ ومخلوقاته ، ولا يجافي القيم الإسلامية »[٣] .

---

(١) منهج الفن الإسلامي : ص(٨٧) .

(٢) المرجع السابق : ص ٨٧ .

(٣) نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد : ص (١١٣) .

المراد بفَنِّية التعبير :

١ ـ جماله وروعته : ولا غروَ فإشراق العبارة وجمالها شرطان أساسيان لازمان لكلِّ أدب ولا سيّما إذا كان إسلامياً .

٢ ـ وشرطٌ آخر في التعريف السابق : وهو أن يكون هادفاً ؛ لأن أفعال المسلم وأقواله مصونة عن اللغو والعبث .

٣ ـ الالتزام الديني: إنه أدب ملتزم، ولكن ليس كالتزام الاشتراكيين والوجوديين، فهو التزام بالإسلام وقيمه وتصوُّراته ، وتقيد بمبادئه ومثله وغاياته[١] وهو أدب مسؤول ، والمسؤولية الإسلامية : التزام نابع من قلب المؤمن وقناعاته ، التزام تمتد أواصره إلى كتاب الله الّذي جاء (بلسان عربي مبين) ولا يصحّ أن ننخدع بالتزام الوجوديين وغيرهم[٢] .

٤ ـ الالتزام الخُلقي : فهو أدب أخلاقي ملتزم بأخلاق الإسلام وآدابه لا يحيد عنهما ، والالتزام الديني والخلقي يميِّزه عن سائر الآداب ، وإلا كان اتباعاً للهوى وضلالاً مبيناً[٣] .

٥ ـ الدعوة إلى وحدة الأمة والتغني بأمجادها : وكل أديب يعبِّر عن حال أمته ، والأديب المسلم أولى بأن يكون أدبه معبِّراً عن حال أمته الإسلامية ، وأن يبرز أمراضها ، ويصف لها الدواء من واقع دينها[٤] .

---

(١) نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد : ص(١١٤) .
(٢) المرجع السابق : ص(١١٤) .
(٣) مدخل إلى الأدب الإسلامي : للأستاذ نجيب الكيلاني ص٣٢ .
(٤) انظر « بحث الأدب الإسلامي وعناصره المميزة » ضمن تقرير الندوة العالمية =

هذه أهمُّ شروط وعناصر الأدب الإسلامي الأساسية ، إذا توفرت فيه هذه الشروط ؛ أصبح عملاً إسلامياً دعوياً هادفاً ، وكان وسيلة قوية مؤثِّرة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى ، والأدب الإسلامي لا ينحصر في الخطبة والقصة والدرس ، بل يشمل عليها وعلى التاريخ والسيرة والوصف والحوار ، والتصوير والتعبير المؤثِّر الجميل ، وهو نثر سلس وشعر رائع ، وهو تقريع وعتاب ، وتطريب وإمتاع ، وبيان وإفهام ، إنه مرآة كلامية صادقة للحياة الإنسانية في الأحوال النفسية والكونية(١) ، وإذا كان الأدب الآن يوجه وجهة غير إسلامية ، بل يوجه لنشر الفساد والإباحية ، وأكثر من ذلك يوجه لمحاربة الإسلام ، فإنه أولى بنا أن نستعمل السلاح نفسه لنشر الفضيلة ، والدعوة إلى الخير وإلى سبيل الله ، والدفاع عن الإسلام .

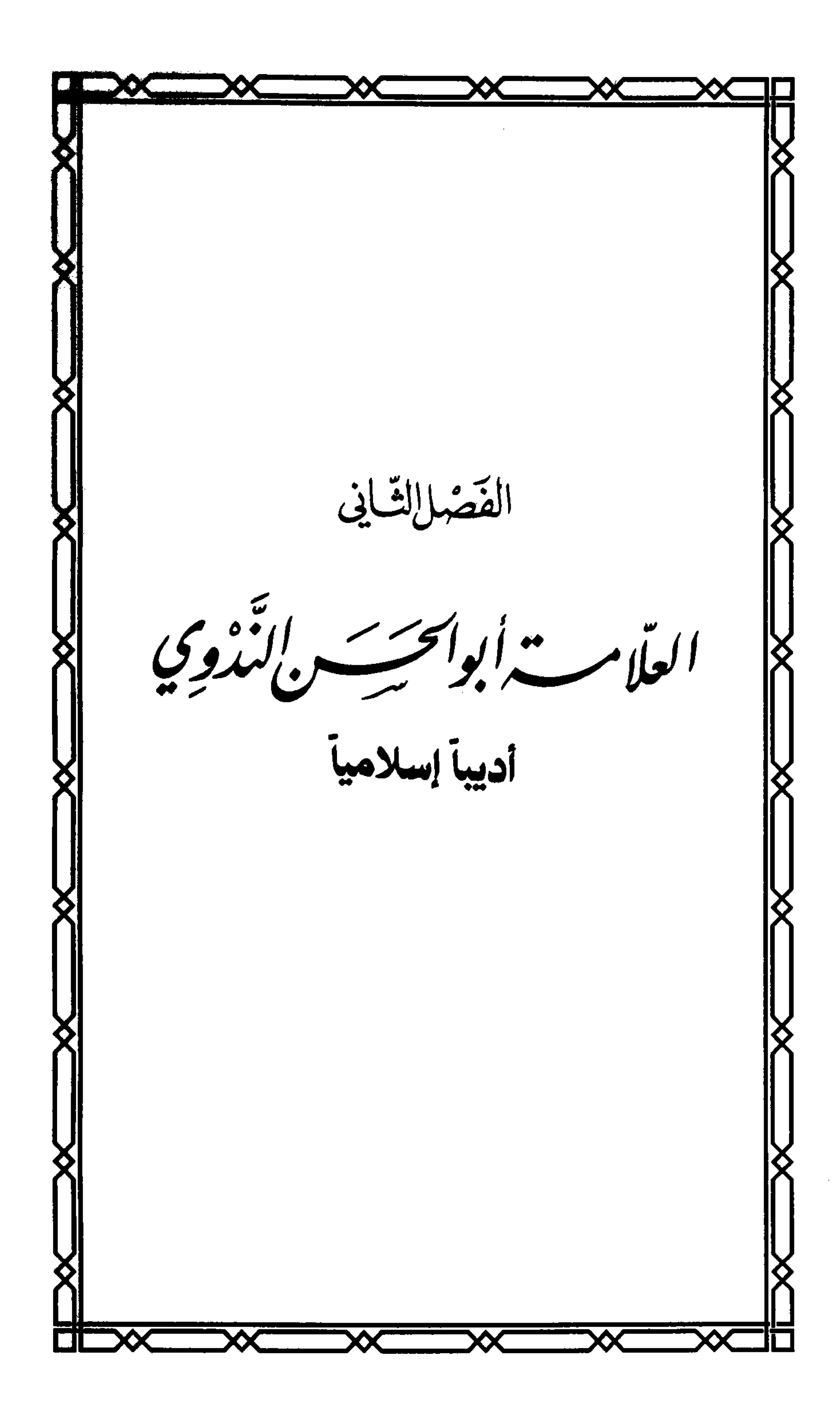
وهذا ما دفع العلامة أبا الحسن الندوي كداعية إلى الله تعالى إلى بيان ضرورة هذا الجانب في الدعوة والإصلاح ، فاهتمّ واشتغل بالأدب الإسلامي اهتماماً بالغاً واشتغالاً كبيراً ، ودعا الدعاة والعلماء والأدباء والشعراء إلى تنميته وتطويره ، والاهتمام به كمنبر من منابر الدعوة ، ووسيلة قوية يرفع المصلحون من خلالها أصواتهم بالدعوة والإصلاح ، ورابطة يتجمَّع حولها أصحابُ التصور الصحيح ، والفكر السليم ، والعواطف المستقيمة يتذاكرون أحوال أمتهم ، وسبل علاجها .

* * *

= للأدب الإسلامي ـ ص (٥٧) .

(١) الأدب الإسلامي وصلته بالحياة : ص(٢٤) .





الفَصْل الثّاني

العلّامة أبو الحسن النَّدْوِي

أديباً إسلامياً



مساهمة العلاّمة الندوي
في خدمة الأدب الإسلامي وتأسيس رابطتِه

يهب اللهُ بعضَ الناس قدرات متميِّزة ، كالحسِّ المرهف ، والبيان العالي ، والشخصية النافذة ، وغير ذلك من المواهب ، يصبحون بها أصحابَ عطاءاتٍ لا تتأتّى لغيرهم ، وعندما يوفَّق أحد هؤلاء الموهوبين إلى توظيف قدراته في الدعوة إلى الله وهداية الآخرين فسوف يكسب المجتمع داعية مبدعاً ، وبليغاً متفوِّقاً ، ورجلاً تتفتح له القلوب ، وتركن إليه النفوس . والعلاَّمة أبو الحسن الندوي كان واحداً من هؤلاء اجتمعت فيه قدرات كثيرة متنوِّعة ، فكرية وأدبية ودعوية ، أعطى من خلالها لأكثر من نصف قرن في ميادين الدعوة والفكر والأدب الإسلامي ، وسوف أعرض باختصارٍ في الفقرات التالية لعطائه في ميدان واحد منها هو ميدان الأدب الإسلامي . تتوزَّع عطاءات العلاَّمة الندوي ـ رحمه الله تعالى ـ في ميدان الأدب الإسلامي في قسمَين كبيرَين هما : قسم عمليٌّ ، وقسم إبداعيٌّ .

أمَّا القسمُ العملي فهو الجهود التي كان يقوم بها العلاَّمة الندوي في سبيل إظهار قضية الأدب الإسلامي ، ونشرها ، والارتقاء بها إلى مصاف العالمية ، وتتضمَّن هذه الجهود مؤتمرات الأدب الإسلامي التي كان يعقدها أو يوجِّه لعقدها ، أو يحضرها ، والندوات

والمحاضرات والمقابلات الصحفية التي كان يعرض فيها قضيةَ الأدب الإسلامي ، وجهوده في قيام رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، ورئاسته لها مدَّةَ ثلاثة وعشرين عاماً . وقد كان للعلاَّمة الندوي دورُ الريادة في عقد مؤتمرات الأدب الإسلامي ، وكان لهذه المؤتمرات أثرٌ كبيرٌ في نشر وتطوير قضية الأدب الإسلامي ، وفيما أعلم فإنَّ أول مؤتمرٍ دوليٍّ للأدب الإسلامي عقد بدعوته وتحت رعايته كان عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م في « ندوة العلماء » بمدينة لكهنؤ بالهند ، وهي الهيئة الإسلامية العريقة التي كان يديرها ، ويدير من خلالها جامعة إسلامية ضخمة ومجموعة من المدارس والمعاهد الإسلامية المنتشرة في الهند وباكستان وبنغلاديش وبلاد أخرى ، وقد تمكن بفضل صِلاته ومكانته الكبيرة أن يجمع في هذا المؤتمر وفوداً ومندوبين من مصر والسعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وقطر وسورية والأردن والمغرب العربي يمثِّلون جامعات وهيئات ثقافية فيها ، وبحثت فيه المحاور الأساسية لتنظير الأدب الإسلامي ، وصدرت توصيات للجامعات العربية والإسلامية لتدريس هذا الأدب (وكانت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض قد سبقت إلى تدريس مادة منهج الأدب الإسلامي) ودعمه بشتى السُّبل ، والإسهام في تنظيره .

وقد شجَّع هذا المؤتمرُ جهاتٍ أخرى على عقد مؤتمرات وندوات ولقاءات دولية وإقليمية ، فعقد في السنة الثانية (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٥م) الحوار حول الأدب الإسلامي وقضاياه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة ، وعقدت عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م الندوة العالمية للأدب الإسلامي في جامعة الإمام محمد بن سعود

الإسلامية بالرياض ، وتوالت بعدها مؤتمرات وندوات في مصر والمغرب العربي والأردن وباكستان وبنغلاديش وتركية وبريطانية ، وكان العلاَّمة الندوي يحرص على حضورها رغم ما يتكلفه من المشقة وعناء السفر ، كما كان يحرص على عقد مؤتمر أو ندوة دولية أو إقليمية مرَّةً على الأقل في كل سنة في إحدى مدن الهند ، وكان لحضوره زخمٌ كبيرٌ يستقطب المشاركين ، بل والمجتهدين في تقديم البحوث والاستماع إلى المناقشات ، وقد أحصيت من خلال ما نشر في مجلة « البعث الإسلامي » اثنين وعشرين مؤتمراً وندوة كان فيها راعياً ومشاركاً رئيسياً .

وكان يتصل بمحور المؤتمرات والندوات والخطب والمحاضرات واللقاءات مع الأفراد والمجموعات والإعلاميين الذين يسعون إليه في تلك المناسبات ، وكان يركِّز فيها دائماً على قيمة الأدب بعامة ، وقدراته الكبيرة في التأثير في الأفراد والمجتمعات ، والحاجة الملحة للأدب الإسلامي في عصرنا الحاضر بخاصة لمواجهة تيَّارات الهدم ومنابر التغريب والإلحاد الأدبية ، وإشباع الحاجة الفطرية إلى الجمال البياني ، وضرورة تعزيز الارتباط بين الأدب والدعوة إلى الله ، ووظيفة الأدب في البناء والإصلاح ، ويركِّز على التربية الذوقية التي يقدمها الأدب الإسلامي ، وأثرها الإيجابي الكبير في بناء شخصية المسلم ، وصلتها الوثيقة بالبلاغة القرآنية والبيان النبوي ، وهذه القضايا محاور أساسية في الأدب الإسلامي .

ومِن جهوده العملية في خدمة الأدب الإسلامي احتضانه ورعايته

المتميزة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية ، ففي أواخر العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري كانت مجموعة من المهتمِّين بالأدب الإسلامي تبحث في إنشاء تجمُّعٍ للأدباء الإسلاميين لتعزيز موقفهم في الساحة الثقافية ، وفتح منافذ لنشر إنتاجهم الذي كانوا يجدون صعوبةً في نشره ، فقد كان أصحابُ الاتجاه اليساري مسيطرين على قسم كبير من منافذ النشر في العالم العربي ، وخاصة المجلاَّت والملاحق والصفحات الأدبية في الدوريات العربية ، ولا سيَّما التي تملكها أو تؤثر عليها الحكومات .

وكان البحث يركِّز على ضرورة قيام تواصل وتناصر بين الأدباء الإسلاميين على البُعْد ، وفي لقاءٍ ضمَّ عدداً من الأساتذة الجامعيين المتخصصين في الأدب والنقد احتفاءً بالدكتور عماد الدين خليل ولدت فكرة الهيئة التأسيسية لرابطة الأدب الإسلامي ، التي بدأت بمراسلة الأدباء والنقاد وأساتذة الأدب والنقد وبعض المفكِّرين الإسلاميين وطرح فكرة تأسيس رابطة للأدب الإسلامي ، واقتراح أهدافها وأساليب عملها . ولقيت هذه المقترحات ترحيباً شديداً ، وأرسلَ بعض المتحمِّسين لها مقترحات نيِّرة ، وكتب بعضهم عن تجارب ومحاولات بدؤوا بها قبل سنوات ثم حالت الظروف دون تنفيذها .

وعلى مدى خمس سنوات نضجت فكرة تأسيس الرابطة لدى أعضاء الهيئة التأسيسية ، ووضعت الملامح الرئيسية لنظامها الأساسي ، وصيغت بعض فقراته ، وبدأ البحث الجَّاد عن شخصية متميزة تتولَّى رئاسةَ الرابطة ، ومقرٍّ لمكتبها الرئيسي يمنحها الصفة

القانونية ويعترف بشخصيتها الاعتبارية كاملةً كما يريدها المؤسِّسون ، ويمنحها حرية العمل دون تدخُّلٍ في شؤونها ، وكان هاجسٌ (التخوف من مصطلح الإسلامية) يقلق المؤسِّسين ، فالتطرُّف الذي انزلق إليه بعضهم ، والآثار السلبية لبعض الأعمال المسلحة التي ظهرت في أكثر من مكان في العالم العربي ، وعوامل أخرى مرتبطة بها ، جعلت المؤسِّسين يفتِّشون بحرصٍ شديدٍ عن الشخصية التي تتجاوز تلك التخوُّفات ، وتجتذب الثقة بالرابطة وأهدافها ، وكانت شخصية العلاَّمة الندوي القطب الذي أجمع عليه المؤسِّسون ، وكل من استشيروا ، فهي شخصيةٌ تمتلك صفات فريدة كأنَّها مفصلة تفصيلاً لهذه الرابطة . تمثِّل كل ما يحمله اسمها من (إسلامية) و (أدبية) و (عالمية) ، فالعلاَّمة الندوي مفكِّرٌ إسلاميٌّ عُرِف بتميُّز فكره منذ كتابه المبكر « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » ؛ وهو ذو موهبةٍ أدبيةٍ تشهد بتألُّقها كتابته عن محمد إقبال ، ومختاراته من الأدب العربي ، ثم إنَّ المزيج الذي يحمله في عروقه من الأصول العربية والهندية ، وانتشاره الواسع في العالم الإسلامي أبين مظهر لتجاوزه حدود المحلية إلى العالمية .

ونيابةً عن الهيئة التأسيسية سعى اثنان من أعضائها إلى العلاَّمة الندوي عندما جاء إلى مكة لحضور مؤتمر رابطة العالم الإسلامي عام ١٤٠٤هـ وعرضا عليه همومَ التأسيس والحاجة إلى من يتولَّى المسؤولية واجتماع الرأي عليه ، فقبل ـ رحمه الله ـ دُون تردُّدٍ ، وتكفَّل بإنجاز الإجراءات القانونية لتسجيل الرابطة وإنشاء مكتبها الرئيسي في الهند ، ولم تمض مدَّةٌ طويلةٌ حتى جاء البشير بتحقق الآمال التي طالما تطلَّعَ إليها الكثيرون وولادة الشخصية

الاعتباريّة القانونية الدولية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية .

وبعد شهور قليلة ، وبالتحديد في شهر رجب عام ١٤٠٥هـ الموافق لشهر إبريل نيسان عام ١٩٨٥م وفي جوٍّ عاطفيٍّ نادرٍ كان المؤتمرُ الأول للرابطة يعقد في إحدى قاعات « ندوة العلماء » بمدينة لكهنؤ بالهند برئاسة العلاَّمة الندوي ، ويحضره أعضاء مؤسِّسون من معظم الدول العربية والهند ، ليضع الصيغة المعتمدة لنظام الرابطة ومكاتبها الإقليمية ويختار أعضاء مجلس أمنائها ، وكان له الفضلُ الكبير في تحوُّلِ الحلم إلى حقيقة قائمة .

وعلى امتداد خمسة عشر عاماً بذل العلاَّمة من وقته وجهوده الشيء الكثير في إدارة الرابطة ، وحَضَر جميع مؤتمراتها ومجالس أمنائها في أماكن شتى : السعودية والأردن وتركية ومصر والمغرب العربي وبريطانية ، رُغْم آلام المرض ومتاعب الشيخوخة ، وكان لتوجيهاته الحكيمة الفضل الكبير في نُمُوِّ الرابطة وتطورها وتجاوزها لكثير من المعوِّقات الداخلية والخارجية ، والتي كاد بعضها يعصف بها غير مرَّةٍ ، ولولا فضل الله سبحانه ثم حكمة العلاَّمة وصبره وتدخُّلِه لاستيعاب المشكلات الطارئة وحلِّها ؛ لكانت الرابطة واحدةً من التجارب الإسلامية القصيرة والمريرة في عصرنا الحاضر(١) ، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ الرجلَ الموفَّقَ الذي انتُظِر طويلاً ليتعزَّز به الأدبُ الإسلامي ، وليجد من يرعاه في عصر القوميَّات الضيِّقة ، ومحاولات فصل الدين عن الأدب والفكر ، والسياسة والاقتصار

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي ، بحوث ودراسات : (من مقال الدكتور عبد الباسط بدر بتصرُّف) ص(٥٥٧ ـ ٥٦٠) .

على جوانب الحياة العمليَّة . . . فقد احتضن هذا الرجل ـ بحماسة المؤمن الصادق ـ أولَ تجمُّعٍ للأدباء الإسلاميين على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم ، وظهرت برعايته أول هيئةٍ أدبيةٍ إسلاميةٍ ، لا في العصر الحديث وحسب ، بل وفي تاريخ الشعوب الإسلامية كله . . فما أعرف في هذا التاريخ الطويل العريض تجمعاً للأدباء يلتقي فيه الهندي والعربي والتركي والأندنوسي على مفهومات واحدةٍ ومنهجٍ علميٍّ موحَّدٍ . . ولئن كانت الروابط والاتحادات والجمعيات الأدبية بدعة حديثة في العالم كله ، فإنها لم تعرف تجمعاً للأدباء الإسلاميين قبل أن يحتضن العلاَّمة الندوي رابطةَ الأدب الإسلامي ويرعاها[١] .

وقد بذلت الرابطة التي أسَّسها العلاَّمة الندوي في السنوات الماضية جهوداً عظيمةً في مجال العلم والأدب ، والفكر والدعوة ، واليوم تجاوز عددُ مندوبيها أكثر من مئتي مندوبٍ للجامعات ومراكز العلم والأدب الإسلامية المختلفة في البلدان العربية والإسلامية ، والفضل في كلِّ هذا راجعٌ إلى الله تبارك وتعالى ، ثم بتوفيقه إلى فقيد الأدب الإسلامي العلاَّمة أبي الحسن الندوي .

* * *

(١) نظرات في الأدب : ص(٩) .



الفَصْل الثّالث

عطاءُ
العلَّامة أبي الحسن النَّدْوي
في جوانب عِدَّة من الأدب الإسلامي

القسم الأول : نظراتٌ وتأمُّلاتٌ وآراءٌ للعلَّامة الندوي في الأدب الإسلامي .

القسم الثاني : عناية العلَّامة الندوي بأدب الأطفال .



القسم الأول :

نظراتُه وتأمُّلاته وآراؤه
في الأدب الإسلامي

يبدو عطاء العلاَّمة أبي الحسن الندوي في جوانب عدة من الأدب الإسلامي تتجاوز التوقُّعات التي يَحْدُس فيها المرء في داعية فقيه ، فقد قدَّم أعمالاً أدبية إسلامية في الدراسات الأدبية والنقدية ، وفي أدب الرحلات ، وفي أدب التراجم والسِّيَر ، وفي قصص الأطفال ، وهذه ميادين إبداعية تكشف عن موهبة أدبية غنية متعدِّدة الجوانب .

فمن الدراسات الأدبية والنقدية التي نشرها كتاب : « روائع إقبال » ، درَسَ فيه آفاق الإبداع عند الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال ، وحَلَّل نصوصاً رائعة ترجمها بنفسه من دواوينه الفارسية والأردية ، وطوَّف في الآفاق الفكرية والشعورية التي تضمنتها القصائد ، وأظهر من خلالها التصوُّرَ المتميِّز للشخصية المسلمة التي كانت تملأ نفس إقبال ومشاعره ، وعوامل القوَّة والاستمرار فيها ، وأسباب تفوُّقِها على النماذج البشرية الأخرى ، كما وقف على الأبعاد الفلسفية العميقة في تصوُّر إقبال لوظيفة الإنسان المسلم في الحياة ، والريادة التي وضعته فيها عقيدته ، ووظيفة الدعوة ، والهداية التي تشع عطاءً حنوناً للبشرية .

ومن كتابات العلاَّمة الندوي المهمَّة في الأدب الإسلامي كتابه : « نظرات في الأدب » ، فهذا الكتاب عرضٌ نقديٌّ ، ودراسةٌ تنظيريةٌ لمفهومات أدبية كبرى ، يقرِّر مقاييس أساسية لمفهوم العمل الأدبي ، ويؤصِّل قواعد للأدب الإسلامي ، ويبيِّن طبيعته ، وعناصره المميزة له عن الآداب الأخرى ، ويحدد وظائفه ، وأهدافه ، والقِيَم ذات المضمون ، والشكلية فيه ، وهذه هي الموضوعات الرئيسية التي يتجادل فيها دُعاةُ الأدب الإسلامي وخصومه وهي التي تفصل في وجوده وغيبته .

نقدِّم في الصفحات القادمة بعض التأمُّلات والنظرات والآراء للعلاَّمة الندوي ، والتي توشك أن تكون بيان مبادىء للأدب الإسلامي ، أو لبعضه على الأقل ؛ ذلك أنَّ القارىء يخرج من الكتاب بعدد من القواعد والأحكام حول : مفهوم الأدب وطبيعته ، والموقف من فصوله المنسية ، وآفاق الأدب الإسلامي وبعض خصائصه . فلنمضِ في جولةٍ سريعةٍ نستعرض مباحث هذا الفصل وأقسامه .

يضمُّ هذا الفصلُ بين دفتيه ستة أقسام يجمعهما محوران ، هما : مقاييس للأدب ونقده ، وآفاق عالمية للأدب الإسلامي .

وأمَّا المحورُ الأول فيشغل أربعة أقسام المبحث الأول ، ويدلُّك عليه عنوان الفصل الأول ، وهو « نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي » . وهو كذلك بحق . فالعلاَّمة الندوي في هذا الفصل يرفض أن يكون الأدب « صناعة تقليدية » ، ويرفض أن يقتصر على حياكة المدَّاحين والمتملقين والمتحذلقين ، ويقرِّر : أن الأدب كل

تعبيرٍ جميلٍ صادقٍ عن أحداث هزَّت الوجدان . لذلك لا يصح أن نحتبس في دواوين الشعراء المعروفين ، وصفحات الكتاب المتفرغين ، وعلينا أن ننقب عن نصوصه الجميلة في كتابات أخرى لم تقصد تحبير الكلام وتنميقه ، إنما قصدت نقل حدث ، أو فكرة ، أو إحساس بصدق كامل . . وأي شيء يكون الأدب غير هذا ؟!

ويقدِّم العلاَّمة دليله الحاسم : نصوصاً رائعة من كتب الحديث والسِّيرة والمغازي والتاريخ ، ويقف وقفات جمالية دقيقة على مقاطع منها ، تحس معها : أنه يحصي نبض الكلمات ويلمس حرارةَ العبارة وينقلها إليك في أقوى صيغ التأثير .

وهذه ـ فيما أحسب ـ نظرةٌ جديدةٌ للأدب ، فتاريخ الأدب الذي درسناه ودرَّسناه يقتصر على إبداع الشعراء « الممتهنين » والكتاب « المحترفين » ، ولا يبلغ هذه الآفاق الواسعة ، ولا يصل إلى تلك المضمونات الإنسانية الحقيقية . وهذه النظرةُ تفتح الباب واسعاً لتاريخ جديد يعيد تقويم الأدب في كل عصر ، ويعيد صياغة الأحكام على رفعته وانحداره ، وقد يغير فيها الشيء الكثير . .

ويأتي القسم الثاني امتداداً لنظرة الفصل الأول وتطبيقاً لموازينه على نصوص كريمة عظيمة ، هي من أصدق الأدب روايةً وفائدةً ومتعةً ، فلئن اتفقت مذاهب الأدب على أن الأدب يقدِّم « شيئاً » للإنسان ، قد يكون فائدة ، وقد يكون متعة فنية . . فإنَّ نصوص الحديث النبوي تقدِّم « كل شيء » للإنسان ، تقدِّم البناء الفكري والسلوكي والذوقي ، وتقدم المتعة الجمالية في البيان الساحر ، لذلك عمد العلاَّمة الندوي إلى نصوص الحديث الشريف ، فبيَّن

أبعادها الأدبية ، وعطاءاتها البلاغية ، وآثارها النفسية والاجتماعية ، ونبَّه إلى جوانب لا ينتبه إليها إلا متأمّلٌ ذوّاقةٌ ، هدى الله بصيرته إلى دقائق الأمور .

ويأتي القسم الثالث والرابع والخامس مراجعة لفنون أدبية محددة هي : أدب التراجم والتقديمات والرحلات . وهي أيضاً مراجعة نقدية ، تعيد النظر في طبيعة هذه الفنون وصفاتها الرئيسة . وقد دأَبَ الدارسون على تقديم كلٍّ من هذه الفنون بتعريفاتٍ محددةٍ وعباراتٍ تبيِّن طبيعتها ووظيفتها ، فأدبُ التراجم ـ فيما قرأنا عنه ـ عرض لحياة أشخاص متميزين يهتم برصد الأحداث الكبيرة فيها وآثار المترجَم له ، غير أن العلاَّمة الندوي يضع شروطاً لمن يتجرَّد لهذا الأدب ، يستنبطها من الصفات التي يريدها لهذا الفن . . . ففضلاً عن المعرفة الواعية الناقدة ، والقدرة على البيان ، والدقة والأمانة والشعور بالمسؤولية ، يشترط في كاتب التراجم وجود « الدافع النبيل » أي أنَّ فن التراجم لا بدَّ أن يرتبط بدافع نبيل ويصدر عنه . وينبِّه المترجمين إلى ضرورة أن يدركوا أن للكلمات « درجة حرارة وبرودة » وأن عليهم أن يحسوا بها ، ويحسنوا توظيفها . . . وهذه لمحات ذكية يدركها من عايش هذا الفن طويلاً وتعمق فيه ، وهذا جانب جديد في شخصية العلاَّمة الندوي وتراثه العائلي نكتشفه عندما نعرف أنه نشأ في بيئة هوايتها التراجم والتاريخ ، فوالده مؤلِّفُ أكبر موسوعة في ترجمة رجال الهند المسلمين ، وجدُّه سبق إلى وضع موسوعة بالفارسية كما تحدَّثنا في الباب الثاني .

وأمَّا أدب الرحلات فيضع العلاَّمة يده على سماتٍ مهمةٍ فيه ،

فهو ينبِّه إلى أهمية النظرة الشاملة إلى المجتمع الذي يكتب عنه الرَّحَّالة ، وإلى ضرورة التسجيل المباشر للأحداث والمشاهدات لرصد المشاعر الحقيقية والانطباعات التي تلد فجأةً وتموت بعد حين ، والخواطر التي لا يعيدها التذكر ، ويقف عند قضية يخالف فيها كثيراً من كتَّاب الرحلات ومنظِّري هذا الفن الأدبي ، هي : ذات الأديب ومكانها في أدب الرحلات . فيرفض أن ينحِّي الأديب فكره ومشاعره وعقيدته ويتحوَّل إلى آلة تصوير « باردة » ، ويوجِّهه إلى أن يسكب ذاته في تعليقات ذكية وتحليلات صادقة تستحضر العاطفة وتملأ الوجدان . وقد طبَّق العلاَّمةُ ذلك في كتابه « مذكِّرات سائح في الشرق العربي » وأثبت أن تدخل الأديب بالتعليق والتحليل يحول العمل من الأداء الجامد إلى عرض يضج بالحياة والأحاسيس والأفكار .

ويأتي القسم السادس لتسليط أضواء على آفاق عالمية للأدب الإسلامي ، يؤكِّد فيه العلاَّمة الندوي : أنَّ الأدب الإسلامي عالميٌّ ، يستمد عالميته من عالمية الإسلام ، فيستوعب آداب الشعوب الإسلامية كلها .

صحيحٌ : أن اللغة العربية هي لغة الأدب الإسلامي الأولى ، وأنَّ الحُلْمَ الكبير لدعاته ـ بل ولكلِّ مؤمن ـ أن تكون لغة المسلمين جميعاً . ولكن ، ونحن على أعتاب الحلم لا يجوز أن نغفل عن الواقع ، فكثيرٌ من الشعوب الإسلامية تتكلَّم لغات محلية خاصة ، وتكتب بها ، وتعيش حياتها الثقافية بمفرداتها ، وتعبِّر عما يجيش في صدور أبنائها بألفاظها وعباراتها . ومن التجنِّي أن نتجاهل هذه

الحقيقة أو نتجاوزها . وقد ظهر في هذه الأمم أدباء مبدعون امتلأت وجداناتهم بالإسلام ، وتفجَّرت قرائحهم بعطاءات مدهشة ، واستطاعت قصائدهم وقصصهم ومسرحياتهم أن تهزَّ شعوبهم ، بل إن بعض إبداعهم تجاوز خارطة بلادهم إلى آفاق عالمية ، فتُرجم إلى لغات عدة ، وحظي بإعجاب المتذوقين والدارسين ، وليس بعيداً عنا محمد إقبال وما كُتِبَ عنه بالإنجليزية ، والألمانية . .

وهكذا يفتح لنا العلاَّمة الندوي باباً آخر في الأدب الإسلامي ما زالت دروبه بكراً ، وما زالت دراساته ميداناً واسعاً للدارسين ، ويقدِّم نماذج لما في ذلك الميدان ، فيعرض جانباً من أدب جلال الدين الرومي ، وهو جانبٌ تراثيٌّ ، وآخر على أبواب قرننا الميلادي هذا ، هو أدب محمد إقبال . وكلا العرضين متميز في ملامحه وأهدافه . فالأول يتتبع ملامح إنسانية دقيقة هي : الحُبُّ في تساميه نحو المطلق وتوجُّهه إلى مقرٍّ علويٍّ يلوذ به ، وعالم القلب الذي لا يسافر فيه إلا أصحاب القلوب الغنية ، وقيمة الإنسان ، هذه قضية كبيرة في الآداب بعامة وفي الأدب الإسلامي بخاصة . فالإنسان في الأدب الإسلاميِّ قيمةٌ لا تعلو عليها إلا قيمة جلال الخالق عزَّ وجلَّ ، وقد أبدع الروميُّ في عرض هذه القضايا بلغة القلب والعاطفة . . . وأبدع العلاَّمة الندوي بتقديم هذا الجانب من شعر جلال الدين الرومي .

وهكذا يتكامل المحوران لعرض نظرات وتأمُّلات رائدٍ من روَّاد الأدب الإسلامي في قضايا إسلامية في الأدب والنقد هي : مفهوم الأدب وطبيعته وحدوده ، والآفاق العالمية للأدب الإسلامي .

ولا شكَّ : أنَّ هذه « النظرات والتأملات » تنظير للأعراف والقواعد والمقاييس ، وريادة في دروب الأدب الإسلامي ونقده .

ولا شكَّ أيضاً : أنه ليس من شأن الريادة أن تكون عملاً تفصيلياً يقف عند كل جزئية ، ولا من شأنها أن تكون دراسة معمَّقة لا تترك شيئاً لمن بعدها . أبداً . . . فالريادة خطوة جريئة في أرض جديدة ، وسطر في صفحات لم تكتب بعد ، ووثبة تفتح الباب المغلق ليدخل منه الآخرون ، وهي قبل ذلك كله موهبة لا يحملها إلا من آتاه الله فراسة قوية ، وإدراكاً دقيقاً لطبيعة الأشياء ، وقبساً من نورٍ يضيء مجاهل الطريق . . وقد ملك العلاَّمة الندوي ذلك ، ففتح لنا في « نظراته وتأملاته » أبواباً لا باباً واحداً ـ وهذا من توفيق الله له ـ أملاً في أن ندخل منها ، ونعبِّد الطريق . . .

فقد أثبت العلاَّمة الندوي ـ رحمه الله تعالى ـ بهذه النظرات والتأملات : أنه رائدٌ في أكثر من ميدان : في العمل الدعوي المعاصر ، وفي رعاية أول رابطة للأدباء الإسلاميين ، وفي تنظير بعض قواعد الأدب الإسلامي ، وفي الكشف عن مناجم مهملة لأدبنا العربي[1] .

ولعلَّ آخر ما يخطر على بال من يدرس نتاج مفكِّرٍ فقيهٍ داعيةٍ أن يجد له إسهاماً في أدب الأطفال، لكن العلاَّمة الندوي الذي كان يحمل همَّ الدعوة وهموم المسلمين حيثما كانوا وجد في هذا الميدان ما غفل عنه الكثيرون قبل نصف قرن ، فالطفل هو البنية الواعدة

---

(١) نظرات في الأدب : (من تقديم الدكتور عبد الباسط بدر بتصرف واختصار) .

ورجل المستقبل . والعناية به تأسيس للرجل الصالح ، والقصة بما تملكه من مشوِّقات ومؤثِّرات وسيلة تحفز في نفوس الأطفال أخاديدَ لا تُرْدم ، ولقد لحظ العلاَّمة ذلك وأدرك خطورةَ هذا المنبر في إهماله وفي استخدامه، وبحث عن النصوص القصصية المناسبة فلم يجد الكثير ، وأراد أن يدعو الأدباءَ الإسلاميين إلى مَلْءِ الفراغ قبل أن يملأهُ غيرهم ، فجعل دعوته نظرية وتطبيقية ، واختار من حياة الأنبياء والرُّسُل مواقف وأحداثاً مهمة ، وأخرجها في مجموعة قصصية سماها (قصص الأنبياء) ، وصاغها بأسلوبٍ عذبٍ مبسَّطٍ يناسب الطفلَ في مرحلة تفتح الوعي التي تلامس مرحلة الفُتُوَّة ، وهي أخطر مرحلة في حياة الطفل ، تتأسس فيها مفهوماته ، وتتجذر قيمه .

وقد نَبَّه العلاَّمة الندوي في مقدِّمة المجموعة إلى أهمية هذا اللون من الأدب ، وأثره في تنشئة الأجيال والشروط التي ينبغي أن تتوافر فيه ليكون ناجحاً يتغلغل إلى أعماق الناشئة ، ويزرع فيهم القِيَم الفاضلة .

فيأتي المبحث الثاني من هذا الفصل ليتحدَّث عن ذلك التراث التاريخي الخالد الذي قدَّمه العلاَّمة الندوي لأدب الأطفال ، والذي أعاد بريقه ، ولمَّع جوانبه من خلال تلك الكتب التي ألفها للأطفال ، وتحدَّث فيها عن أمجاد أمتنا الإسلامية وسموِّ أخلاقها بأسلوب الداعية الصادق الذي تتدفَّق منه كلمات الدعوة ملتهبة ، تحمل صدق العاطفة وسموَّ الروح ، فيحمل هذا المبحثُ أهدافاً هي : التعريف بفكر العلاَّمة الندوي الأدبي للطفل .

نظرة جديدة له إلى تراث الأدب العربي

كتب العلامة الندوي بحثاً قيماً سنة ١٩٥٧م تحت عنوان « نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي » ، وذلك عندما اختير عضواً بمجمع اللّغة العربية بدمشق ، قَدَّمَ فيه نظرةً جديدةً للتراث الأدبي العربي ، وكشف فيه عن ثروة دفينة للأدب تنتظر من يستخرج منها الدُّرر الكامنة المهجورة ، ودَعَا فيه أصحاب الاختصاص إلى البحث عن عناصر الأدب الإسلامي ، ونخل المكتبة الإسلامية واستعراضها ، وتوسيع دائرة الأدب العربي الإسلامي ، والخروج به عن النطاق الضيق الذي ضُرِب حوله ، واحتبس فيه من تسلّطِ أصحاب الصناعة الأدبية والمحترفين على هذا الأدب ، الذين يتخذونه حرفة وصناعة ويحتكرونه احتكاراً ، ويتنافسون في تنميقه وتحبيره حتى أصبح مقصوراً على الكلام المصنوع ، والأدب التقليدي الّذي لا روح فيه ولا قوة ، ولا جدَّة ولا طرافة .

يجدر بي أن أقدّم هنا هذا البحث القيم بكامله الذي كان هو نواةً لتأسيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية . يقول ـ رحمه الله ـ :

« أُصيب الأدب العربي بمحنة تصيب كلَّ أدب ، محنة تكاد تكون طبيعية ومطردة في الآداب واللغات ، إلّا أن آجالها تختلف من أدب إلى أدب . فقد يطول أجلها في أدب أمة

من الأمم ، ويقصر في أدب أمة أخرى ، ويرجع ذلك إلى عوامل عدَّةٍ ، أهمها : الأحوال الاجتماعية والسياسية ، وحركات الإصلاح والتجديد ، والبعث الجديد . فإذا توافرت هذه العوامل في الأمة ؛ قصر أجل المحنة ، وإذا فقدت أو ضعفت ؛ طال أجل المحنة ، وطال شقاء الأدب والأمة كلها بها .

هذه المحنةُ هي : تسلُّط أصحاب التصنع والتكلف على الأدب ، الذين يتخذونه حرفة وصناعة ، ويتنافسون في تنميقه وتحبيره ؛ ليثبتوا براعتهم وتفوقهم ، وليصلوا به إلى أغراض شخصية محضة .

وقد يطول هذا الأمر ويستفحل ، حتى يصبح الأدب مقصوراً عليهم ، ومختصاً بهم ، ويأتي على الناس زمانٌ لا يفهمون فيه من كلمة « الأدب » إلا ما أثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع ، وأدب تقليدي ، لا قوَّة فيه ولا روح ، ولا جدَّة ، ولا متعة .

ويطغى هذه الأدب الصناعي التقليدي على كل ما يؤثر عن هذه الأمة ، وتحتويه عليه مكتبتها الغنية الزاخرة من أدب طبيعي وكلام مرسل ، وتعبير بليغ يحرِّك النفوس ، ويثير الإعجاب ، ويوسِّع آفاق الفكر ، ويغري بالتقليد ، ويبعث في النفس الثقة ، ولا عيب

فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب والإنشاء ، ولم يتخذوه حرفة ومكسباً ، ولم يشتهروا بالصناعة الأدبية ، ولم يكن لهذا النتاج الأدبي الجميل الرائع عنوان أدبي ، ولم يكن في سياق أدبي ، وإنما جاء في بحث ديني ، أو كتاب علمي ، أو موضوع فلسفي أو اجتماعي ، فبقي مغموراً مطموراً في الأدب الديني ، أو الكتب العلمية ، ولم يشأ الأدب الصناعي ـ بكبريائه ـ أن يفسح له في مجلسه ، ولم ينتبه له مؤرِّخو الأدب ـ لضيق تفكيرهم وقصور نظرتهم ـ فينوِّهوا به ، ويعطوه مكانه اللائق به .

إنَّ هذا الأدب الطبيعي الجميل القوي كثيرٌ وقديمٌ في المكتبة العربية ، بل هو أكبر وأسبق زمناً من الأدب الصناعي ، فقد دُوِّن هذا الأدب في كتب الحديث والسيرة قبل أن يُدوَّن الأدب الصناعي في كتب الرسائل والمقامات ، ولكنه لم يحظ من دراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم ما حظي به الأدب الصناعي ، مع أنه هو الأدب الذي تجلَّت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها ، وبراعة أهل اللغة ولباقتُهم ، وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى .

ونأخذ كتبَ الحديث والسيرة ـ كمثال لهذا

الأدب الطبيعي ـ فنقول أولاً : إنَّها اشتملت على معجزات بيانية ، وقطع أدبية ساحرة ، تخلو منها مكتبةُ الأدب العربي ـ على سعتها وغناها ـ وهو دليل على صحة هذه اللغة ومرونتها ، واقتدارها على التعبير الدقيق عن خواطر ومشاعر ، ووجدانات وكيفيات نفسية عميقة دقيقة ، ووصف بليغ مصوِّر للحوادث الصغيرة ، وهي الكتب التي حفظت لنا مناهجَ كلام العرب الأولين ، وأساليبَ بيانهم .

ولئن صح ما قاله الرَّقَاشِي[1] : « إنَّ ما تكلمت به العرب من جيِّد المنثور أكثر مما تكلمتْ به من جيد المنظوم ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره »[2] ؛ فكُتب الحديث النبوي تسدُّ هذا الفراغ الواقع في تاريخ الأدب العربي ، وتنقل إلينا هذا الذخر الأدبي الذي اعتُقِدَ أنه قد ضاع ، وتمتاز : أنها قد اتصل سندها ، وصحت روايتها ، فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة التي كانت سائدةً في عهدها الذهبي الأول ،

---

(١) هو الفضل بن عبد الصَّمد بن النضل الرَّقَاشِي البصري ، شاعرٌ مجيدٌ ، من أهل البصرة فارسيُّ الأصل ، انتقل إلى بغداد ، ومدح الخلفاءَ ، مات نحو عام ٢٠٠هـ .

(٢) البيان والتبيين : للجاحظ : (١/ ١٧٥) .

وللأدب العربي الذي كان منتشراً في جزيرة العرب .

إنَّ هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة وطويلة ، وكلها أمثلة جميلة لِلُغة العرب العَرْباء التي كانوا يتكلمون بها ويعبِّرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم ، ويجد دارس الأدب العربي فيها من البلاغة العربية ، والقدرة البيانية ، والوصف الدقيق ، والتعبير الرقيق ، وعدم التكلف والصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرُّوَّاة بالبلاغة والتحرّي في صحة النقل والرواية ، وَلِلُّغة العربية بالسعة والجمال .

أمَّا الروايات الطويلة ؛ فهي ثروة أدبية ذات قيمة فنية عظيمة ، وهي التي تجلَّت فيها بلاغةُ الراوي العربي ، واقتداره على الوصف والتعبير والتصوير ، وهي التي يطول فيها نَفَسُهُ ، فيحكي حكاية يعبِّر فيها عن معان كثيرة ، وأحاسيس دقيقة ، ومناظر متنوعة، فلا يخذله اللسان، ولا يخونه البيان ، ولا يتخلف عنه مدد اللغة ، وكأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة قد أبدع فيها الفنانُ ، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصوِّرُ كلَّ الإحسان .

اقرأْ معي حديثَ كعب بن مالك عن تخلُّفه عن غزوة تبوك ، وهو موضوع دقيق مُحرِج ،

يطلب منه الصراحة والاعتراف بالتقصير ، والشهادة على النفس ، ويطلب منه تصوير ذلك الجو الغائم العابس الذي عاش فيه خمسين ليلة ، ويطلب منه تصوير الخواطر التي كانت تجيش في صدره ، وتساور نفسه وهو يعيش في جفاء وعتاب ، ممن يحبهم وتربطه بهم العقيدة والعاطفة ، لا يجد لذة في فراقهم ، ولا يرى في الدنيا عوضاً عنهم ، وتصوير تلك الصلة الروحية والحب العميق الذي يربطه بالنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ربطاً وثيقاً محكماً ، لا يحلُّه العتاب والعقاب ، ولا يضعفه إقبال الملوك عليه وتوددهم إليه ، وتصوير ذلك السرور الذي غمره على أثر قبول توبته .

ما أصعب هذا الموضوع ، وما أكثره تعقُّداً ودقَّةً ، ولكنه ببلاغته العربية يتغلب على هذه المشكلات النفسية والأدبية ، ويترك لنا ثروة نعتز بها .

اقرأْ معي هذه القطعة الصغيرة التي اقتبستُها من حديثه الطويل ، وهو يحكي ما أحاط بهذه الغزوة العظيمة من ظروف وأجواء ، ويصوِّر تلك الحالة النفسية التي تخلّفَ فيها عن هذه الغزوة ، وما انتابه من التردد ، ولم يكن التخلّف عن الغزوات من سيرته

وعادته ، وتمتَّعْ بما احتوت عليه هذه القطعةُ من القوة والجمال ، وصدق التصوير وبراعة التعبير [يقول ـ رضي الله عنه ـ] :

« وغزا رسولُ الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهَّزَ رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ والمسلمون معه ، فطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي : أنا قادر عليه . فلم يزل يتمادى بي حتى اشتدّ الجدُّ ، فأصبح رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً ، ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممتُ أن أرتحل فأدركهم ـ وليتني فعلت ـ فلم يُقَدَّرْ لي ذلك ، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فطفت فيهم ، أحزنني أنِّي لا أرى إلَّا رجلاً مغموصاً عليه النفاق ، أو رجلاً ممَّن عذره الله من الضعفاء » .

ثم انظرْ كيف يصوّر حالته وقد هجره المسلمون ، ونُهُوا عن كلامه ، وكيف يعبِّر عن حالة المُحِبِّ الذي هجره الحبيبُ ـ عقوبة

وتأنيباً ـ وهو يطمع في ودِّه ويتسلى بنظراته ، والذي لم يزدْه هذا العتاب إلّا رسوخاً في المحبة ولوعةً وجوىً ، دَعْه يقص قصته بلسانه البليغ :

« ونهى رسولُ الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين مَنْ تخلَّفَ عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكَّرت في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأمَّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشَبَّ القوم وأجْلَدَهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ ، وآتي رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرَّك شفتيه بردّ السلام أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس ؛ مشيتُ حتى تسوَّرتُ جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي ، وأحب الناس إليّ ، فسلَّمت عليه ؛ فوالله ما ردّ عليَّ السلام ! فقلت : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحِبُّ الله ورسوله؟ فسكت ، فعدتُ

له فنشدتُه ! فسكت ، فعدتُ له فنشدتُه ، فقال : الله ورسوله أعلم ! ففاضت عيناي ، وتوليتُ حتى تسوَّرت الجدارَ »[1] .

واقرأْ معي كذلك حديث الإفك ، الذي ظهر فيه براعةُ السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ الأدبية ، وقوتها البيانية ، وحسن تصويرها ، ووصفها للعواطف والمشاعر النسوية اللطيفة الدقيقة ، وقد تجلَّت في هذه القطعةِ رقَّةُ عاطفة المرأة المحبة لزوجها ، مع إباء الحُرّة الواثقة بعفافها وطهارتها ، المؤمنة بربِّها ، وقد أضفى هذه المزيج الغريب من الرقّة والشدَّة ، والعاطفة والعقل ـ زد على ذلك بيان عائشة التي تقلَّبت في أعطاف البلاغة العربية ، وانتقلت فيها من بيت إلى بيت ـ أضفى كلُّ ذلك على هذه الرواية من الجمال الفنّي ما يجعلها من القِطَع الأدبية الخالدة في الأدب .

انظر كيف تصف ما تقوَّله الناسُ ، وتحدَّثوا به ، وما شعرت به من تغيُّرٍ في وجه الرسول ،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب حديث كعب بن مالك ، برقم (٤٤١٨) ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب حديث توبة كعب بن مالك ، برقم(٢٧٦٩) ، وأحمد في المسند (٣/٤٥٨) برقم (١٥٨٢٧) عن عبد الله بن كعب بن مالك رضي الله عنهما .

صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، تذكر كل ذلك في حياء المرأة وأدبها من غير إبهامٍ أو عيٍّ :

قالت عائشة : (فقدمنا المدينة فاشتكيتُ حين قدمتُ شهراً والناس يفيضون في أصحاب الإفك ، لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي : أني لا أعرف من رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ اللطفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل عليَّ رسولُ الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فيسلِّم ثم يقول : «كيف تِيْكم[1] ؟» ثم ينصرف ، فذلك يريبني ، ولا أشعر بالشرِّ) .

وتذكر توجُّعَها من الخبر المُشاع ، فتقول : (فبكيتُ يومي ذلك كله ، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم . قالت : وأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويوماً ، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظن أنَّ البكاء فالق كبدي)[2] .

---

(١) تِيكم : يُشير ﷺ إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وهو اسم إشارة إلى المؤنَّث بمنزلة « ذا » للمذكَّر .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات ، باب تعديل النساء بعضهنَّ بعضاً ، برقم (٢٦٦١) ، وفي كتاب المغازي ، باب حديث الإفك ، برقم (٤١٤١) ، وفي كتاب التفسير ، باب ﴿ لولا إذا سمعتموه ظنّ المؤمنون ﴾ . . . برقم (٤٧٥٠) ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب في حديث الإفك ، برقم (٢٧٧٠) =

وتتقدَّمُ في الحكاية ، وتذكر كيف يسألها رسولُ الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ عما قيل عنها ، ويعزم عليها الصدق ، فلا تلبث أن تعتريها حميَّةُ المرأة العفيفة الفاضلة ، ويقلص دمعها حتى لا تحس منه بقطرة ، وترجو أباها وأمَّها أن يجيبا عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيمتنعان ويفضِّلان السكوت حياءً من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ واستحياءً من الدفاع عن قضية بنتهما ، وهو الدفاع عن النفس ، فتنبري للكلام القوي الصريح المبين ـ وهي البليغة الأديبة ـ وتتمثل بقول سيدنا يعقوب ، وتفوِّض أمرها إلى الله ، وتتنزَّل براءتها من السماء فتطلب منها أمها أن تشكر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتقوم إليه ، فتأبى ـ في دلال العفائف وأنفة المؤمن ـ أن تحمد إلَّا الله الذي أنزل براءتها من فوق سبع سمٰوات ، وخلَّدَ طهارتها إلى آخر يوم يقرأ فيه القرآنُ ، ويؤمن به .

واقرأْ كذلك حكايتها للهجرة النبوية ، وذكرها لتفاصيلها ، وما وقع لرسول الله

= وغيرهما عن عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيَّب .

ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وصاحبه[١] رضي الله عنه في الطريق ، ووصولهما إلى المدينة ، وكيف تلقَّاهما الأنصار ، وفرحوا بقدوم رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وكل ذلك مثال رائع للوصف الدقيق البليغ ، والبيان القادر الوصاف .

وهنالك رواياتٌ أخرى طويلة النَّفَس ، ضافية البيان ، تشتمل على غُرر الكلام ، وبدائعه الحسان ، ومناهج العرب الأولين في كلامهم ، كحديث صُلُح الحديبية[٢] ، وحديث الإيلاء[٣] ، وغير ذلك ، كانت تستحق أن تكون في المكانة الأولى في دراستنا الأدبية ، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين ، والناقدين ؛ لأنها لم تدخل في دواوين الأدب ، ولأنَّ تصوُّرَهم للأدب كان تصوراً محدوداً جامداً لا يعدو الصناعةَ .

---

(١) هو سيِّدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، برقم (٢٧٣١) ، وبلفظ أطول من لفظه في المغازي ، وأحمد في المسند (٤/ ٣٢٨ ـ ٣٣١) برقم (١٨٩٤٤) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الطلاق ، باب في الإيلاء . . . برقم (١٤٧٩) ، وابن حبان في الصحيح (٩/ ٤٩٦) برقم (٤١٨٨) ، وأبو يعلى في المسند (١/ ١٥٠) برقم (١٩٥) وغيرهم عن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه .

ويلي الحديثَ كتبُ السيرة ، فقد حفظت لنا جزءاً كبيراً من كلام العرب الأقحاح ، ومثَّلت تلك اللغة البليغة التي كانت في عصور العربية الأولى وهذَّبها الإسلام ورقَّقها ، واشتملت على قِطَع أدبية لا يوجد لها نظيرٌ في المكتبة العربية المتأخرة .

اقرأْ في « سيرة ابن هشام » حديثَ حليمة ابنة أبي ذؤيب السعدية عن رضاعة رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، واقرأ فيها قصصَ الاضطهاد والتعذيب ، واقرأ فيها مغازي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وحروبه ، واقرأ في كتب الحديث والشمائل ، وفي كتب التاريخ والسير أحاديث الوصف والحلية ؛ تجد من القدرة الفائقة على الوصف والتعبير والبيان الساحر لدقائق الحياة وخوالج النفس ، وترى من اللغة النقية الصافية ، واللفظ الخفيف ، والتعبير الدقيق الرقيق ما يطربك ، ويملؤك سروراً ولذة ، وثقة وإيماناً بعبقرية هذه اللغة ، ورغبةً في دراستها ، والتوسع فيها .

وهكذا صانَ الله هذه اللغة الكريمة الأمينة للقرآن من الضياع ، وانتقلت ثروتها من جيل إلى جيل ، ومن كتاب إلى كتاب ، حتى جاء

دور التأليف والتأريخ في القرن الثالث والرابع ، وحفظ لنا المؤرِّخون أمثال : الطبري ، والمسعودي ، والأدباء أمثال : الجاحظ ، وابن قتيبة ، وأبي الفرج الأصبهاني ثروةً زاخرةً من الأدب في كتبهم ، وحفظوا لنا تلك اللغة العذبة البليغة التي كان العرب الصرحاء يتكلَّمون بها في بيوتهم وعلى موائدهم وفي مجالس انبساطهم ، وجاء منهم الشيء الكثير في « كتاب البخلاء » للجاحظ ، و « كتاب الإمامة والسياسة » لابن قتيبة ، و « كتاب الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني ، (على ضآلة قيمة الكتابين الأخيرين التاريخية) ، و « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » للبُسْتي ، وكتاب « الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيَّان التوحيدي ، وهذه كتب التاريخ والأدب تمثِّل لنا العربية في جمالها الأول ، ونقائها الأصيل ، وسعتها النادرة .

ثم جاء دورُ المتكلِّمين المقلِّدين للعجم ، ونبغ في العواصم العربية أمثالُ أبي إسحاق الصَّابي ، وأبي الفضل بن العميد ، والصاحب ابن عبَّاد ، وأبي بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني ، وأبي العلاء المعرِّي ، واخترعوا أسلوباً للكتابة والإنشاء هو بالصناعة

اليدوية ، والوشي ، والتطريز أشبه منه بالبيان العربي السَّلسال ، وكلام العرب الأولين المُرسَل الجاري مع الطبع ، وغلب عليهم السجع ، والبديع ، وغلوا في ذلك غلواً أذهب بهاء اللغة ورواءها ، وقيَّدَ الأدب بسلاسل وأغلال أفقدته حرِّيتَه وانطلاقه وخفة روحه وجماله .

وتزعَّمَ هؤلاء الأدب العربي ، واحتكروه ، وخضع لهم العالم العربي والإسلامي لقوَّة نفوذهم وعلو مكانتهم تارةً ، وللانحطاط الفكري والاجتماعي الذي كان يسود العالم الإسلامي تارةً أخرى ، وأصبح أسلوبهم في الكتابة هو الأسلوب الوحيد الذي يُحتَذَىٰ ، ويقلَّد في العالم الإسلامي .

وجاء أبو القاسم الحريري ، فألَّف « المقامات » ـ وهو أسلوب الكتابة المسجَّعة المختمر ـ وقد تهيأت العقولُ لقبولها ، فعكف عليها العالم الإسلامي دراسة وشرحاً وتقليداً وحفظاً ، وتغلغلت في مدارس الفكر والأدب ، وبقيت مسيطرةً على العقول والأقلام أطول مدة تمتع بها كتابٌ أدبيٌ ، وما ذلك لفضل الكتاب ، بل لأنه قد وافَقَ هوى النفس ،

وصادف عصرَ الجمود والعقم الأدبي في العالم الإسلامي .

ثم جاء القاضي الفاضل ـ مجدِّد أسلوب الحريري وبالأصح مقلِّده ـ وهو وزير أعظم دولة إسلامية في عصرها ، وكاتب سِرّ أحبِّ سلطان في عهده ، صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين ومعيد مجد المسلمين ، فانتشر أسلوبه في العالم الإسلامي ، وحرص على تقليده الكُتَّابُ والمنشِئون في أنحاء المملكة الإسلامية .

وهكذا بقي أسلوبٌ وحيدٌ يتحكم في العالم الإسلامي ، ويسيطر في الأوساط الأدبية ، وأصبح ما خلَّفه هؤلاء الكتابُ المتصنعون من تراث أدبي هو المَعْنيّ بالأدب العربي ، وجاء المؤرِّخون للأدب فاعتبروهم أئمةَ البلاغة وأمراء البيان وأصحاب الأساليب ، وقدَّموا ما كتبوه وعرضوه للدارسين والباحثين ، وقلَّد بعضهم بعضاً وتناقلوه ، وأصبحت كتب التاريخ والأدب نسخة واحدة ، وأصبحت الكتابةُ صورة واحدة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، لا يستثنى منها إلَّا عبقريان اثنان ، أولهما : ابن خلدون ، وثانيهما :

الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي[1]
[المعروف بـ « شاه ولي الله »]
(م ١١٦٧هـ) .

وتناسى هؤلاء ما كتب غيرهم ، وانصرف الناس ـ حتى الباحثين منهم ـ عن ذخائر الأدب العربي الثمينة ، ولم يفكر أحد في أن يبحث في التاريخ والسير والتراجم وفي مؤلفات العلماء عن قطع أدبية رائعة تتفوق ـ في قوتها وحيويتها ، وسلامتها وسلاستها ، وفي بلاغتها وجمال لغتها ـ على دواوين أدبية ومجاميع أكبَّ عليها الناس ، وافتتنوا بها .

هذا وقد بقيت طائفةٌ من العلماء ـ حتى في عصور الانحطاط الأدبي ـ غير خاضعين لأسلوب تقليدي في عصرهم ، متحرِّرين من السَّجع والبديع والصنائع والمحسنات اللفظية ، يكتبون ويؤلفون في لغة عربية نقية ، وفي أسلوب مطبوع يتدفَّق بالحياة ، إذا قرأه الإنسان ؛ ملكه الإعجاب ، وآمن بفكرتهم وخضع لعقيدتهم ولما يقرِّرونه ، وهذه القطع

(١) اقرأ كتابه الفريد : «حجة الله البالغة» ، واقرأ ترجمة مؤلِّفه في « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للعلاَّمة عبد الحي الحسني (٣/ ٧٤٧) ، والجزء الرابع لـ« رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلامة الندوي .

ـ التي طُويت في أثناء كتب علمية أو دينية ، فجهلها الأدباء ، وزهد فيها تلاميذ الأدب ـ هي من بقايا الأدب العربي الأصيل ، وهي التي عاشت بها العربية هذه السنين الطوال ، وهي التي يفزع إليها المتأدب المتذوق ، وهي رياض خضراء في صحراء العربية القاحل ، التي تمتد من عصر ابن العميد إلى عصر القاضي الفاضل إلى أنْ جاء ابن خلدون .

إنَّ ما كتبه هؤلاء العلماء غير معتقدين : أنهم يكتبون للأدب ، ولا زاعمين : أنهم في مكانة عالية من الإنشاء ، هو الذي يُسعد العربية ويشرّفها أكثر مما يسعدها ويشرفها كتابات الأدباء ورسائلهم وموضوعاتهم الأدبية ، وأخافُ لو أنهم قصدوا الأدب ، وتكلفوا الإنشاء ؛ لفسدت كتابتهم . وفقدت ذلك الرونق وتلك العذوبة التي تمتاز بها ، وخسرنا هذه القطع الجميلة المليئة بالحياة ، فقد التصقت بالأدب شروطٌ وصفات وتقاليد هي المفسدة له ، الطامسة لنوره ، فلا بدَّ فيه من السجع والصناعة ، ولا بدَّ فيه من البديع ، والمحسنات اللفظية ، ولا بدَّ من تقليد من يُعَدُّ في الطبقة الأولى من الأدباء ، وأما الكتابات العلمية التاريخية ، والدينية ؛ فليست فيها هذه

الالتزامات ، وهذه الشروط القاسية ، لذلك تأتي أبلغَ وأجملَ .

ونرى الكاتبَ الواحدَ إذا تناول موضوعاً أدبياً ، وتكلَّف الإنشاء ؛ تدلَّى وأسفَّ ، وتعسَّف وتكلَّف ، ولم يأتِ بخير ، وإذا استرسل في الكلام وكتب في موضوع علمي أو ديني ؛ أحسن وأجاد ، هكذا نرى الزمخشري متكلِّفاً مقلِّداً في « أطواق الذهب » وكاتباً موفَّقاً بليغاً في مقدمة « المفصَّل » وفي مواضع من تفسيره « الكشَّاف » ، ونجد ابن الجوزي غير موفَّق في كتابه : « المُدهِش » وكاتباً مترسِّلاً بليغاً في كتابه : « صيد الخاطر » .

وظنِّي : أنهما كانا يعتبران أثريهما الأدبيين « أطواق الذهب » و « المدهش » من أفضل كتاباتهما الأدبية التي يعتمدان عليها ، ويفتخران بها ، ولعلَّ عصرهما صفَّق لهذين الكتابين « الأطواق » و « المُدهش » أكثر مما صفَّق لكتابتهما العلمية والأدبية والدينية ، ولكن قاضي الزمان وحاكم الذوق قد حكما بالعدل ، فليس اليوم للكتابين الأولين قيمةٌ كبيرةٌ ، أما « صيد الخاطر » و « تلبيس إبليس » ، و « المفصَّل » و « الكشَّاف » فهي جديرة بالبقاء وجديرة بكل اعتناء .

ليس السِّرُّ في فضل هذه الكتابات العلمية والدينية ، وتأثيرها وقوتها وجمالها هو التحرُّرُ من السجع والبديع وترسُّلِها فحسب ؛ بل السبب الأكبر هو أن هذه الكتابات قد كُتبت عن عقيدة وعاطفة ، وعن فكرة واقتناع ، وعن حماسة وعزم ، أما الكتابات الأدبية ؛ فقد كان غالبها يُكتب بالاقتراح من ملك أو وزير أو صديق ، أو لإرضاء شهوة الأدب أو تحقيق رغبة المجتمع ، أو حبّاً للظهور والتفوق ، وهذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة والروح ، ولا تسبغ عليها لباس البقاء والخلود ، ولا تعطيها التأثير في النفوس والقلوب ، والفرق بينها وبين الكتابات المنبعثة من القلب والعقيدة كالفرق بين الصورة والإنسان ، وكالفرق بين النائحة والثكلى .

ويذكِّرني هذا قصةً رُوِيناها في الصِّبا وهي : أنَّ كلباً قال لغزال : ما لي لا ألحقك وأنا مَن تعرف في العَدْوِ والقوَّة ؟ قال : لأنك تعدو لسيّدك ، وأنا أعدو لنفسي .

وقد كان هؤلاء الكُتّاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرةٌ أو عقيدةٌ أو يكتبون لأنفسهم ، يكتبون إجابةً لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين

منبعثين ، فتشتعل مواهبهم ، ويفيض خاطرهم ، ويتحرق قلبهم ، فتنثال عليهم المعاني ، وتطاوعهم الألفاظ ، وتؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها ؛ لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلّا في قلب .

أمَّا هؤلاء المتصنعون فإنهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثِّلين ، قد يمثِّلون الملوك ، فيتصنّعون أبهة الملك ومظاهره ، وقد يمثِّلون الصعلوك ، فيتظاهرون بالفقر ، وقد يمثِّلون السعيد وقد يمثلون الشقي من غير أن يذوقوا لذةَ السعادة ، أو يكتووا بنار الشقاء ، وقد يُعزّون من غير أن يشاركوا المفجوع في أحزانه ، وقد يهنِّئون من غير أن يشاركوا السعيد في أفراحه .

بالعكس مِن ذلك اقرأ كتابات الغزالي في « الإحياء » وفي « المنقذ من الضلال » ، واقرأ خطب الشيخ عبد القادر الجيلاني (رضي الله عنه) وما صحَّ منها ، واقرأ ما كتبه القاضي ابن شدَّاد عن صلاح الدين ، واقرأ ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه الحافظ ابن قيِّم الجوزية في كتبهما ؛ تر مثالاً رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوةً وحياةً وتأثيراً ، وذلك هو الأدبُ الحيُّ الخليقُ بالبقاء ، ولا سبب

لذلك إلّا أنه كُتب عن عقيدة وعاطفة .

وهنالك شيءٌ آخرٌ وهو أن الإيمان ، وصفاء النفس ، والاشتغال بالله ، والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حسناً ، ولطافة نفس ، وعذوبة روح ، ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة ، واقتداراً على التعبير البليغ ، فتأتي كتابته كأنها قطعة من نفس صاحبها ، وصورة لروحه ، خفيفة على النفس ، مشرقة الديباجة ، لطيفة السبك ، بارعة في التصوير ، لذلك كان من الأدب الصوفي ومن كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها وقوتها على مرِّ العصور والأجيال ، وترى من ذلك نماذج في كلام السادة : الحسن البصري ، وابن السَّمَّاك ، والفُضيل بن عياض ، وابن عربي الطَّائي تُعدُّ من محاسن العربية ، واقرأ ـ على سبيل المثال ـ الحوار الذي دار بين ابن عربي ونفسه ، وسجَّله في كتابه : « رسالة روح القدس » .

إنَّ هذه القِطَع الأدبية الدافقة بالحياة والقوة والجمال كثيرةٌ غير قليلة في المكتبة العربية ، إذا جُمعت ؛ تكوَّنت منها مكتبة ، لكنها منثورة مبعثرة ، مطوية مغمورة في أوراق كتب

ومؤلفات ، لا تجدها في ركن الأدب والإنشاء في مكتباتنا العربية ، ولا يذكرها المؤرِّخون للأدب في كتبهم ، هذه القطع أصدق تمثيلاً للغة العربية ، وأدبها الرفيع ، ومحاسنه من كثير من الكتب المختصة بالأدب ، ومن كثير من المجاميع ، والرسائل ، والمقامات الأدبية التي تُعتَبر أساسَ الأدب وزهوَ العربية ومحصولَ العقول .

وهذه القِطَع هي التي تخدم اللغة والأدب أكثر مما تخدمها كتب اللغة والأدب ، وهي التي تفتق القريحة ، وتنشط الذهن ، وتقوِّي الذوق السليم ، وتعلِّم الكتابة الحقيقية .

إنَّ هذه القِطع والنصوص منثورة كما قلتُ في كتب الحديث والسيرة والتاريخ ، وكتب الطبقات والتراجم والرحلات ، وفي الكتب التي أُلِّفت في الإصلاح ، والدين ، والأخلاق ، والاجتماع ، وفي بحوث علمية ودينية ، وفي كتب الوعظ والتصوف ، وفي الكتب التي سجَّل فيها المؤلفون خواطرهم وتجارب حياتهم ، وملاحظاتهم وانطباعاتهم ، ورووا فيها قصة حياتهم .

وهذه ثروةٌ أدبيةٌ زاخرةٌ تكاد تكون ضائعةً ،

وقد جنى الإهمال على اللغة والأدب وعلى الكتابة والإنشاء ، وعلى التأليف والتصنيف وعلى التفكير ، فحرمه مادة غزيرة من التعبير وباعثاً قوياً للتفكير .

مُخطىء من يظن : أنَّ المكتبة العربية قد استُنفِدت ، وعُصِرت إلى آخر قطراتها ، إنها لا تزال مجهولة تحتاج إلى اكتشافات ومغامرات ، إنها لا تزال بكراً جديداً تعطي الجديد ، وتفجأ بالغريب المجهول ، إنها لا تزال فيها ثروةٌ تنتظر من يحفرها ، ويثيرها .

إنَّ مكتبة الأدب العربي في حاجة شديدة إلى استعراض جديد ، وإلى دراسة جديدة ، وإلى عرض جديد .

ولكنَّ هذه الدراسة ، وهذا الاستعراض يحتاجان إلى شيء كبير من الشجاعة ، وإلى شيء كبير من الصبر والاحتمال ، وإلى شيء كبير من رحابة الصدر وسعة النظر ، فالذي يخوض فيها ؛ لِيَخْرُجَ على العالم بتحف أدبية جديدة وذخائر عربية جديدة ؛ ينبغي ألا يكون ضيّقَ التفكير ، جامداً متعصباً في فهمه للأدب ، متعصباً لبلد أو لطبقة أو لعصر ، تهوله ضخامةُ العمل ، واتساع المكتبة العربية ، أو

يوحشه عنوان ديني ، أو يمنعه ـ من الاختيار والدراسة ـ اسم قديم لا صلة له بالأدب والأدباء ، يجب أن يكون حرَّ التفكير ، واسع الأفقِ بعيد النظرِ متطلّعاً إلى الدراسة والتجربة ، واسع الاطلاع على الكنوز القديمة ، يفهم الأدب في أوسع معانيه ، ويعتقد : أنه تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مُفهِم مؤثِّر لا غير .

إنَّني لا أزدري كتبَ الأدب القديمة ـ من رسائل ومقامات وغيرها ـ ولا أقلِّل من قيمتها اللغوية والفنية ، وأعتقد : أنها مرحلة طبيعية في حياة اللغات والآداب ، ولكنني أعتقد أيضاً أنها ليست الأدبَ كله ، وأنها لا تحسن تمثيلَ أدبنا العالي الذي هو من أجمل آداب العالم وأوسعها ، وأنها جنت على القرائح والملكات الكتابية ، والمواهب والطاقات ، وعلى صلاحية اللغة العربية ، ومنعت من التوسع والانطلاق في آفاق الفكر ، والتعبير والتحليق في أجواء الحقيقة ، والخيال ، وتخلفت بهذه الأمة العظيمة ـ ذات اللغة العبقرية والأدب الغنيّ ـ فترة غير قصيرة . فخير لنا أن نعطيها حظَّها من العناية والدراسة ، ونضعها في مكانها الطبيعي في تاريخ الأدب وطبقات الأدباء ، وأن

نقِّب في المكتبة العربية من جديد ، ونعرض على ناشئتنا وعلى الجيل الجديد نماذجَ جديدة من الكتب القديمة للأدب ، حتى يتذوق جمالَ هذه اللغة ويرى قُدْرتها على الإبانة والتعبير البليغ ، ويتعرّف على هذه المكتبة الواسعة ، ويستطيع أن يفيد منها »[1] .

وقد بدأ العلامةُ الندوي بنفسه ، فقدَّم للمكتبة الأدبية الإسلامية عدةَ دراسات جديدة ، وكتبٍ قيمة في الأدب العربي الإسلامي مراعياً فيها هذا المنهج ؛ الذي أشار إليه ، ومن أشهرها : « مختارات من أدب العرب » ، و « روائع إقبال » ، و « الطريق إلى المدينة » و « نظرات في الأدب » ، و « إذا هبَّت ريح الإيمان » ، و « قصص النبيين للأطفال » ، و « قصص من التاريخ الإسلامي » و « القراءة الراشدة » وغيرها من الكتب .

---

(١) نظرات في الأدب : للعلامة الندوي : ص(٢١ ـ ٣٧) .

تأمُّلاتُه في الأدب النبويِّ

لقد استعرض العلامةُ الندوي بعضَ الأحاديث المختارة مبيِّناً ما تشتمل عليه من الصدق والإخلاص ، والجمال والبلاغة ، والرِّقَّة والعذوبة، وهي أسمى صفات الأدب الإسلامي، وما فيها من إعجاز وبلاغة نبويّة لا يستطيعها إلّا مؤيَّد من الله بالوحي ، فضلاً عما تمتاز به هذه الأحاديث من اتصال السند ، وصحة الرواية ، وهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة التي كانت سائدةً في عهدها الذهبي الأول ، وللأدب العربي الّذي كان منتشراً في جزيرة العرب .

وهذه بعضُ الجوانب المهمة التي عَالَجَها العلامةُ ، وعَرَضَها عرضاً جديداً في كتاباته، ومؤلَّفاته، ومحاضراته، وإليك بعضٌ منها :

أدب المناجاة والابتهالات والأدعية المأثورة :

يقول فيه العلامة : « جعلت النبوَّة المحمدية (أرواحنا ونفوسنا فداها) المناجاة والابتهالات جزءاً مستقلاً وقسماً ثابتاً للدين الحنيف ، ونستطيع أن نقول ـ ويشهد لها تاريخُ الأديان والملل : ـ إنَّ هذه النبوة المحمدية جدّدت هذا القسم ، وأحيته ، وأثارته ومنحته من الرقة والرفعة ، وأعطته من الحياة ، والسعة ، والشمول ، والتأثير والانفعال ، والنضرة ، والجمال ، والحيوية ، والصلابة ، والجاذبية ما لا يوجد له مثيل من قبل ولا من بعد ،

ولا ينتهي هنا تجديد النبوة المحمدية ، وعملية إكمالها ، بل إنها علَّمت أيضاً الطُّرقَ والأساليب التي تليق بالدعاء والمناجاة ، وملأت خزينة الإنسانية الشاغرة ، والأدب العالمي الإنساني بالجواهر واللآلىء من الأدعية والمناجاة التي لا يوجد لها نظيرٌ في لمعانها وضيائها بعد الصحف السماوية ، وزيَّنت الأدعية بكلمات لا يقدر أيُّ إنسان على أن يأتي بأحسن منها وأجمل ، وأروع منها وأبلغ ، وتعَدُّ الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ من معجزاته المستقلة ، والبراهين القاطعة النبوية ، ينبعث فيها نور نبوَّته ، ويوجد فيها جزم رسالته ، وعجز عبوديته ، والاعتزاز بأنه محبوب لربِّه ، فيها بساطة فطرته السليمة ، وسذاجة قلبه المتألِّم ، وارتجال نفسه المضطربة ، وفيها اضطراب من يفزع ، وإلحاح من يفتقر ، وغبطة من يعرف منزلة ربِّه ، وفيها جرح القلب والشعور بالألم ، والثقة بإغاثة المغيث ، وإظهار ألم القلب ، وإعلان هذا الأمر[١] .

نماذج من أدب المناجاة والابتهالات والأدعية المأثورة المروية :

ثم يضرب العلاَّمة الندوي مثلاً بموقف من مواقف المناجاة والابتهالات لرسول الله ﷺ ، يظهر فيه فقره إلى الله وحاجته ، في لفظ مُرسَل جميل : فيقول :

« تعالوا نلق نظرةً على الأدعية الَّتي أُثِرت عن رسول الله ﷺ في دواوين الأحاديث وكتب التاريخ والسير ، ولننظر : هل يستطيع

(١) ملحق « الرائد » للأدب الإسلامي ، العدد (٤٩ ـ ٥٠) ص(٨) .

أحدنا ـ مهما بلغ تضلُّعه من الأدب ، وبراعته في الفنون الأدبية والأساليب البيانية ـ أن يأتي ـ وهو يريد أن يبدي عجزَه وضعفَه ، ويصوِّر فقره واحتياجه ، ويستجلب رحمة ربِّه ، ويستمطر سحابة كرمه ـ بكلمات أشد منها تأثيراً ، وأدقَّ منها دلالة على المعاني ، وأكثر منها قلّة في المباني ، وأحسن منها وقعاً في النفوس ، وجذباً للقلوب ، وسحراً للأذهان والعقول .

١ ـ الدُّعاء الذي دعاه النبيُّ ﷺ في الطَّائِف :

تصوَّرْ سفرَه ﷺ إلى الطائف ، وما يحفُّه ، وأَرسِل النظرَ إلى قلب المسافر المتكسِّر ، وقدميه المتضرِّجتين بالدَّم ، واقْرأ في هذه البيئة الظالمة الخانقة .

« اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وقِلَّة حِيْلَتِي ، وهَوَانِي[١] على النَّاسِ ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْن ! أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِيْن ! وأَنتَ ربِّي إلى مَن تَكِلُنِي ؟ إلى بَعِيْدٍ يَتَجَهَّمُنِي[٢] ، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلاَ أُبَالِي ! ولكِنَّ عَافِيَتُكَ هِيَ أَوْسَعُ لِيْ . أَعُوْذُ بِنُوْرِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَة مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ . لَكَ العُتْبَى[٣] حَتَّى تَرْضَى ! وَلاَ حَوْلَ ، وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ !! »[٤] .

---

(١) الهَوَان : الاستخفاف بالشيء والاستحقار .
(٢) التجَهُّم : الاستقبال بوجهٍ كريهٍ .
(٣) العُتْبىٰ : الرجوع عن الذنب والإساءة .
(٤) جاء هذا الدعاء في تاريخ الطبري بهذه الألفاظ ، وقد أخرجه صاحب « كنز =

أفهَلْ تستطيع أن تأتي ـ وقد تكيَّفَتْ نفسُك بهذه الكيفية العجيبة ـ بكلمات أحسن منها وأوقع ؟!

أو هل تقدر مكتباتُ العالَم الأدبية الغنية على أن تُسعِفك بألفاظٍ أكثر منها رشاقةً ، وأحسن منها صياغةً ؟!

٢ ـ الدُّعاء الذي دعَاه النبيُّ ﷺ في ميدان عرفات :

تصوَّرْ كذلك ميدانَ « عرفات » ، وما حواه من مئةٍ وعشرين ألفاً من الدَّاعين المُبْتَهِلين والخاشعين المُنصِتين ، وهو يُدوِّي بأصداء « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ! لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ! » ويتجاوب مع أدعية الحجَّاج الكِرام ، وقد تجلَّت فيه صمديَّةُ الأحد الصَّمد ، وَعَظَمَتُه وجَبَرُوْتُه ، تر في هذا الحشد العظيم الكريم « رَجُلاً » ، حاسراً عن رأسه ، لابساً إحرامَه ـ فِدَاه أبي وأمِّي ـ يحمل على عاتقه مسؤولية البَشَرِيَّة جَمْعَاء ، ويُشاهِد عظمةَ الإلٰه وكِبْرِيَائه أكثر من كلِّ مَن يستطيع هذه المشاهدةَ ، ويطَّلع على عجز الإنسان وضعفه وعيِّه أكبرَ مِن كلِّ من يقدر على هذا الاطِّلاع ، في هذا الجوِّ المَهِيب ، يُدوِّي بصوته الأرجاء ، فيسمعه السَّامِعُون :

« اللَّهُمَّ ! إنَّكَ تَسْمَعُ كَلاَمِي ، وتَرَى مَكَانِي ، وتَعْلَم سِرِّي وعَلاَنِيَّتِي ، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي ، وأَنَا البَائِسُ الفَقِيْرُ ، المُسْتَغِيْثُ المُسْتَجِيْرُ ، الوَجِلُ المُشْفِقُ ، المُقِرُّ المُعْتَرِفُ بِذَنْبِي ،

= العمال » باختلافٍ يسيرٍ . انظر : السيرة النبوية ، لابن هشام (٢/٢٦٨) ، وتاريخ الطبري (١/٥٥٤) ، وتفسير القرطبي (١٦/٢١١) ، وتفسير ابن كثير (٤/١٦٤) .

أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِيْنِ ، وأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْمُذْنِبِ الذَّلِيْلِ ، وأَدْعُوْكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيْرِ ، فَاضَتْ لَكَ عَبْرَتُهُ ، وذَلَّ لَكَ جِسْمُهُ ، ورَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ .

اللَّهُمَّ ! لَا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ شَقِيّاً ، وَكُنْ بي رَؤُوْفاً رَحِيْماً ، يَا خَيْرَ الْمَسْؤُوْلِيْنَ ! وَيَا خَيْرَ المُعْطِيْنَ ! »[1] .

أفهَلْ يستطيع الإنسانُ أن يجدَ ـ لكي يعبِّر عن كِبْرِياء الله وعظمته ، ويعترف بعجزه وضعفه ، وفقره واحتياجه وقلَّة حيلته وهَوانه ، ويُثير رحمة ربِّه ، ويستجلب كرمَه ـ كلماتٍ أكثر منها وقعاً ، وأغنى منها إخلاصاً ، وأشدَّ منها جذباً للنفوس ونُفوذاً في القلوب ؟! أو هل يستطيع أحدُنا أن يصوِّر كيفية قلبه ، وعجزه ، ومسكنته ، بأحسن من ذلك وأدقَّ منه ؟!

وايْم الله ! إنَّ هذه الكلمات لكفيلةٌ بإثارة سَحَابة كَرَم الكريم الحقيقيِّ ، وكلَّما تكرِّرها الأذهانُ ، ويجري بها اللسانُ تفيض العيونُ دموعاً، وتتراءى الرَّحمةُ الإلهيةُ مقبلةً ، فأَلْفُ ألف صلاةٍ وسلام على مَن هو رحمة للعالمين وسيد المعلِّمين ؛ إذ أنَّه علَّم أُمَّتَه هذه الأَدعيةَ الرائعة ذات الأثر البالغ ، والصياغة الدَّقيقة ، وعرَّفنا كيف نقرع « باب الرحمة » .

اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم عليه ، وعلى عِتْرَتِه بعَدَدِ كلِّ معلومٍ لكَ .

---

(1) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٧٤) برقم (١١٤٠٥) ، وفي الصغير (٢/ ١٥) برقم (٦٩٦) عن ابن عباس ، رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٥٢) : رواه الطبراني في الكبير والصغير ، وفيه يحيى بن صالح الإيلي ، قال العُقيليُّ : روى عنه يحيى بن بكير مناكير ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

٣ ـ الاعتراف بعجزه وضعفه :

لكي يستميلَ الإنسانُ المَلِكَ المُقْتَدِرَ ، القَويَّ الغنِيَّ ، القادرَ المطلقَ ، السلطانَ العادلَ ، ويستجلب رحمتَه ، وعطفَه ، وحنانَه لا سبيلَ إلى ذلك إلَّا بالاعتراف بعجزه وضعفه ، وعُبوديته ، ونقصه بأحسن ما يكون الاعتـرافُ بأنَّه عبدُ الملك كابِراً عن كابرٍ ، وجِيْلاً بعد جيلٍ ، فهو مملوكٌ ابن مملـوك . . . إلخ ، وهو متسوِّل على باب السُّلطان القديم ، وربيب هذا النعيم العميم ، والسُّلطان يملك نفسَه وماله ، وكلُّ شيء بيده ، إذاً فمَن يرحم عبده ، ويُواسِيه من بعده ؟ فلننظرْ : هل يمكن لأحدٍ أن يأتي بهذه المقدمة « اللازمة » بأحسن ممَّا أَتى به محمدٌ رسول الله ﷺ يدعو ربَّه ، فيَفيض لسانُه بما يلي :

« اللَّهُمَّ ! إِنِّي عَبْدُكَ وابْنُ عَبْدِكَ ، وابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِيْ بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ العَظِيْمَ رَبِيْعَ قَلْبِيْ ، ونُوْرَ بَصَرِي ، وجَلاَءَ حُزْنِي ، وذَهَابَ غَمِّي »[1] .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، وأحمد في المسند (١/ ٣٩١) ، برقم (٣٧١٢)و ، ص(٤٥٢) ، برقم (٤٣١٨) ، والهيثمي في المسند (٢/ ٩٥٧) ، برقم (١٠٥٧) ، والبزار في المسند (٥/ ٣٦٣) ، برقم (١٩٩٤) ، وأبو يعلى في المسند (٩/ ١٩٩) ، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٩٩) برقم (١٠٣٥٢) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٠) برقم (١٨٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه .

٤ ـ التمثيل الصادق الجامع للحوائج البشرية :

إنَّ حاجاتِ الإنسان لا يأتي عليها الحصرُ ، واختيارُها صعبٌ ، واستقصاؤها أشقُّ ، إذاً فأيُّ حاجةٍ يسألها ، وأيُّ حاجة يتركها ؟ شيءٌ في منتهى الصعوبة ، وغاية الحرج .

ولننظُرْ في حاجاتنا ، لو أُتيح لنا فرصةُ سُؤالها واستشباعها ، لتُواجِهنا الصعوبةُ ، ويعقبها التلهُّف والأسف ، فانظرْ كيف عبَّر النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن حاجيات الإنسان أدقَّ تعبيرٍ ، وكيف مَثَّلَ الإنسانية كلَّها تمثيلاً صادقاً جامعاً شاملاً ـ إذا كانت هذه الإنسانيةُ سليمةَ الطبع ، صحيحةَ الإدراك :

« لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الحَلِيْمُ الْكَرِيْمُ، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمِ، الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ، أَسْأَلُكَ مُوْجِبَاتِ رَحْمَتِكَ ، وعَزَائِم مَغْفِرَتِكَ ، وَالْغَنِيْمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ ، وَالسَّلاَمَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ ، لَا تَدَعْ لِي ذَنْباً إِلَّا غَفَرْتَهُ ، وَلَا هَمّاً إِلَّا فَرَّجْتَهُ، وَلَا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إِلَّا قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ! »[1] .

ويقولُ في دعاءٍ آخَر :

« اللَّهُمَّ ! أَصْلِحْ لِي دِيْنِي الَّذِي هُوْ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيْهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيْها مَعَادِي[2] ،

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الصلاة ، باب ما جاء في صلاة الحاجة ، برقم (٤٧٩) ، وابن ماجه في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في صلاة الحاجة ، برقم (١٣٨٤) من حديث عبد الله بن أبي أوفى ، رضي الله عنه .

(٢) مَعَادِي ، أي : ما يعودُ إليه يوم القيامة .

وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، واجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ »[1] .

٥ ـ الرَّاحة التي لا تنتهي ، والسُّرور الذي لا ينفَد :

ما أَحْرَصَ الإنسانَ على الرَّاحة واللَّذَّة ! غير أنه قصيرُ النظر ، فهو يطلب اللَّذةَ الفانيةَ ، ويسعى للمسرَّة الزائلة ، والنبيُّ ﷺ يُدرِك ذلك ، فيعلِّم أُمَّته مِن خلال أدعيته : أنَّ ما ينبغي أن يطلبه الإنسانُ هو اللَّذةُ الباقية ، والراحةُ الدائمة ، والمسرَّةُ في الحياة الآخرة ، ولذَّةُ النظر إلى وجه الله الكريم ، والشوقُ إلى لقائه ، فيقول :

« اللَّهُمَّ ! إنِّي أَسْأَلُكَ نَعِيْمَاً لَا يَنْفَدُ ، وقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ ، وأَسْأَلُكَ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ ، وبَرْدِ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، ولَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ ، والشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ »[2] .

٦ ـ الحقائقُ التارِيخيةُ والدَّقائقُ النفسيَّـةُ في الأدعية المأثورة :

إنَّ الخُلُقَ الحسنَ أَغْلى نعمةٍ بعد الإيمان ، والذي أخبر عن نفسه : « بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ »[3] ما كان ليتغافل عن أهمية

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب في الأدعية ، برقم (٢٧٢٠) ، والطبراني في الأوسط (٧/ ١٩٨) برقم (٧٢٦١) ، وفي الصغير (٢/ ١٢٧) برقم (٩٠١) من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه .

(٢) أخرجه النسائي في كتاب السهو ، باب الدعاء بعد الذكر ، برقم (١٣٠٦) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٠٥) برقم (١٩٢٣) ، وابن حبان في الصحيح (٥/ ٣٠٥) برقم (١٩٧١)، والبزار في المسند (٤/ ٢٢٩) برقم (١٣٢٩) من حديث عمار بن ياسر ، رضي الله عنه .

(٣) أخرجه القُضَاعيُّ في مسند الشهاب (٢/ ١٩٢) برقم (١١٦٥) ، وابن عبد البر=

الأخلاق الكريمة والصِّفات النبيلة ، ويتغاضى عن خُطورتها ، ودِقَّتِها ، ولذلكَ ترى : أنَّ مكارم الأخلاق ، والترغيب فيها ، والتشجيع عليها ، تشغل جزءاً كبيراً من الأدعية المأثورة ، ويشتمل هذا الجزءُ على الحقائق الخلقية ، والخلجات النفسية الدقيقة التي تناولها علماءُ الأخلاق والنَّفس ـ فعلاً ـ دراسةً وتحليلاً .

فاقْرَأْ أوّلًا دعاءً له ﷺ جامعاً ، ثم اقرأ الأدعيةَ المأثورةَ الأخرى التي تتناولُ الجوانبَ المتنوِّعة للخلق البشري ، فيقول ﷺ في دعاءٍ له أثناء قيامه باللَّيل :

« اللَّهُمَّ ! اهْدِنِي لأحْسَنِ الأَعْمَالِ ، وأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ ، لَا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَقِنِي سَيِّىءَ الأَعْمَالِ ، وَسَيِّىءَ الأَخْلاَقِ ، لَا يَقِي سَيِّئَها إِلَّا أَنْتَ »[1] .

حينما يُشاهِد الإنسانُ صُورتَه في المرآة ، يُدرِك اعتدالَ أعضائه ، واتِّزانَ جسمه ، وصِدقَ قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[2] ، فلم يَفُتِ النبيَّ ﷺ أن يُشعِر أُمَّته بهذه المناسبة كذلك بأهميَّة الخَلْق الحسن ، فعلَّمها أن تدعو الله لتحسين الباطن بجانب تحسين الظاهر ، فباجتماعهما يستحقُّ البشر أن يكون خليفة الله في الأرض ، فيقول ﷺ وهو يرى صورتَه في المَرآة :

= في التمهيد (١٦/ ٢٥٤) ، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٤٤) ، برقم (٦٣٨) ، وص(٣٤٠) برقم (٩١٦) .

(١) أخرجه النسائي في كتاب الصلاة ، باب نوع آخر من الدعاء بين التكبيرة والقراءة ، برقم (٨٩٧) والدارقطني في السنن (١/ ٢٩٨) برقم (٣) عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنه .

(٢) سورة التين ، الآية : ٤ .

« الحَمْدُ للهِ ! اللَّهُمَّ ! كَما حَسَّنْتَ خَلْقِي ؛ فَحَسِّنْ خُلُقِي »[1] .

إنَّ « الحياة الطيبة » تحتاج في تكامُلها إلى إيمانٍ ، وصحَّةٍ ، وخُلُقٍ حسنٍ ، فيقول ﷺ في دُعاءٍ له :

« اللَّهُمَّ ! إنِّي أَسْأَلُكَ صِحَّةً فِي إِيْمَانٍ ، وإِيْمَاناً فِي حُسْنِ خُلُقٍ »[2] .

وفي دعاءٍ آخر :

« وأَسْأَلُكَ لِسَاناً صَادِقاً ، وَقَلْباً سَلِيْماً ، وخُلُقاً مُسْتَقِيْماً »[3] .

٧ ـ دقائِقُ أخلاقيةٌ :

وقد دَعا النبيُّ ﷺ بجانب هذه الأدعية العامَّة المُجمَلة التي تتَّصل بمكارم الأخلاق، ومحاسِن الأوصاف لبعض المحاسِن الأخرى ـ وقد لفتَ بذلك انتباهَ الأمَّة للاهتمام بهذا الجانب العظيم ـ الذي هو في غاية الدِّقة والخُطورة ، وهو بمنزلة المِقياس لتكامُل الأخلاق ، فممَّا يدلُّ على كمال الأخلاق والإنسانية ، والشرف والكرامة ،

---

(١) أخرجه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (١/ ١٣٨) برقم (١٦٣) من حديث علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وابن حبان في الصحيح (٣/ ٢٣٩) برقم (٩٥٩) ، وأبو يعلى في المسند (٩/ ٩) برقم (٥٠٧٥) ، والبيهقي في الشعب (٦/ ٣٦٤) برقم (٨٥٤٢) من حديث عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه .

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٩) برقم (٩٨٤٩) و(٦/ ١٤٦) برقم (١٠٤٠٤) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٠٤) برقم (١٩١٩) ، والطبراني في الأوسط (٩/ ١٣٢) برقم (٩٣٣٣) وغيرهم من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي عن شدَّاد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الدعوات ، باب منه « اللهم إني أسألك الثباتَ في الأمر . . . » برقم (٣٤٠٧) .

والوَرَع والتقوى أن يُرزق الإنسان حبَّ الفقراء والمساكين ، فقد كثر من يُجِلُّون الثروة وذويها ، ويُكرِمون الدنانير والدَّراهم وأهلها ، أما الذين يحبُّون الفقراء والمساكين، ويعطفون على ذَوي الحاجة ؛ فهم في قلَّةٍ وندرةٍ ، إلَّا من وَفَّقه الله وهَداه إلى مسالك الخير ، يقول ﷺ في دُعائه :

« اللَّهُمَّ ! إنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ »[1] .

قد اعتادَ الإنسانُ أن يستكبِر نفسَه ، ويستصغِر غيرَه ، ولم يسلَم من هذا الدَّاء إلَّا أولئك الأفذاذُ المخلصون ؛ الذين عصمهم ربُّك ، فتزكَّت نفوسهم ، وتنزَّهت قلوبهم ، والتأمُّل في ذلك يؤدِّي إلى أنه قد شذَّ من يسلمون من داء الاستكبار والإعجاب ، فإنَّ ذلك يتمكَّن من النفس من حيث لا يشعر بنو آدم ، وبألوانٍ وأشكالٍ لا يُدرِكها البشر ، ولكي يسلم منه الإنسان يحتاج إلى العناية البالغة ، والاهتمام المتواصل بالدُّعاء ، فإنَّ إدراكَ هذا الدَّاءِ وتشخيصه صَعْبَان ، والشفاء منه شيء غير يسيرٍ ، ولذلك فسيِّد المُخلِصين يدعو لنفسه ، ويعلِّم أمَّته أن تدعو لنفسها :

« اللَّهُمَّ ! اجْعَلْنِي صَبُوْراً ، واجْعَلْنِي شَكُوْراً ، وَاجْعَلْنِي فِي عَيْنَيَّ صَغِيْراً ، وفِي أَعْيُنِ النَّاسِ كَبِيْراً »[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، سورة (ص) ، برقم (٣٢٣٣) من حديث عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهما ، ومالك في الموطأ في كتاب القرآن ، باب العمل في الدعاء ، برقم (٥١٧) من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه ، وأحمد في المسند (٥/ ٢٤٣) برقم (٢٢١٦٢) ، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٠٩) برقم (٢١٦) من حديث معاذ بن جبل ، رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الدَّيلمي في الفردوس (١/ ٤٧٣) برقم (١٩٢٦) من حديث بُريدة =

إنَّ اتحادَ الظاهر والباطن ، وصَلاحهما مِن نِعَمِ الله العُظمى ، ومِن فضل الله الكبير ؛ الذي يحتاج الحصول عليه إلى العِناية الزائدة بالدُّعاء المخلص ، يقول معلِّمُ الأخلاق ﷺ :

« اللَّهُمَّ ! اجْعَلْ سَرِيْرَتِيْ خَيْراً مِنْ عَلاَنِيَتِي ، وَاجْعَلْ عَلاَنِيَتِيْ صَالِحَةً »[(١)] .

ويفصِّل ﷺ ذلك في هذا الدُّعاء :

« اللَّهُمَّ ! طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ ، وَعَمَلِي مِنَ الرِّيَاءِ ، وَلِسَانِي مِنَ الْكَذِبِ ، وَعَيْنِي مِنَ الْخِيَانَةِ ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ، وَمَا تُخْفِي الصُّدُوْرُ »[(٢)] .

٨ ـ التعبير عن القلب :

قد نابَ النَّبيُّ ﷺ في دعائه عن كلِّ إنسانٍ في كلِّ ما يحتاجُ إليه ، بأَكمَلِ ما تكونُ النِّيابةُ ، فسيجد كلُّ إنسانٍ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى يوم يَرِثُ الله فيه الأرضَ ومَن عليها ، تعبيراً عن قلبه ، وتمثيلاً لعَواطفه ومشاعره ، وأسباب ارتياحٍ لقلبه ، وطلباً لحاجات قلَّما

= الأسلمي ، رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨١) : رواه البزَّار ، وفيه عقبة بن عبد الله الأصمّ وهو ضعيفٌ ، وحسَّنَ البزارُ حديثَه .

(١) أخرجه الترمذي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الدعوات ، باب دعاء « اللّهم اجعل سريرتي خيراً . . . » برقم (٣٥٨٦) وقال : هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وابن شيبة في المصنَّف (٦/ ١٠٤) ، برقم (٢٩٨٢٤) .

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس (١/ ٤٧٨) برقم (١٩٥٣) ، عن أمّ معبد ، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢١٩) برقم (٥٧٤) ، وأخرجه ابنُ أبي شيبة في المصنَّف بألفاظ زائدة ، انظر : (٦/ ٦٧) برقم (٢٩٥٢١) .

تخطرُ ببال عامّة البشر ، اقْرَأْ هذا الدُّعاءَ[1] على سبيل المثال :

« اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلاَقِ ، وَالأَعْمَالِ ، وَالأَهْوَاءِ ، والأَدْوَاءِ[2] ، نَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ[3] وَمِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ ، فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحوَّلُ[4] ، وغَلَبَةِ الْعَدُوِّ وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ[5] ، وَمِنَ الْجُوْعِ ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيْعِ ، وَمِنَ الْخِيَانَةِ ، فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ[6] ، وأَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا ، أَوْ نُفْتَنُ عَن دِيْنِنَا[7] ، وَمِنَ الْفِتَنِ ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَمِنْ يَوْمِ السُّوْءِ ، وَمِنْ لَيْلَةِ السُّوْءِ ، وَمِنْ سَاعَةِ السُّوْءِ ،

---

(١) لم يروِ هذا الحديثَ أحدٌ كما هو مذكور في المتن ، إنما هو مجموعُ أحاديثٍ بروايات مختلفة ، كما يظهر من التخريج .

(٢) أخرجه الترمذي عن زيادة بن عِلاَقة عن عمِّه ، في كتاب الدعوات ، برقم (٣٥٩١) وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٣) جاءت هذه الفقرةُ نيابةً عمَّن يدعو من الأمة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام .
أخرجها الترمذي عن أبي أُمامة في كتاب الدعوات برقم (٣٥٢١) وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٧١٤) برقم (١٩٥١) ، وابن حبان في الصحيح (٣/٣٠٧) برقم (١٠٣٣) ، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٦٠) برقم (٧٩٣٩) من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه .

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/٤٥٦) برقم (٧٩٢٤) عن عمرو بن العاص ، رضي الله عنه .

(٦) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٣/ ٣٠٤) برقم (١٠٢٩) ، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٥٢) برقم (٧٩٠٣)، وأبو داود في كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، برقم (١٥٤٧) عن أبي هريرة ، رضي الله عنه .

(٧) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب في الحوض ، برقم (٦٥٩٣) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ ، برقم (٢٢٩٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر ، رضي الله عنها .

وَمِنْ صَاحِبِ السُّوْءِ »[1] .

٩ ـ طلب السّعة في الرزق عند كِبر السِّن :

كلُّ واحدٍ منّا يحتاجُ إلى الرزق ، غير أنَّه كَمْ مِنّا مَن يُدرِكَ : أنَّ السَّعة في الرزق ، والرَّغَادة في العيش يحتاج إليهما الإنسان ـ أَشَدَّ ما يكون الاحتياجُ ـ حينما يجتاز آخرَ مرحلة مِن مراحل حياته ، فلا يقدِرُ على تحمُّلِ المشاق ومعالجة العُسر ، ويفقد القدرةَ على كسب المعاش ، وتعجز قُوَاه عن الكدِّ والاجتهاد ، فيروح حريصاً على الراحة ، وسعادةِ العيش ، وسَعةِ الرزق ، فانظُرْ كيف يدعو لذلك معلِّمُ الحكمة ﷺ :

« اللَّهُمَّ ! اجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ عِنْدَ كِبَرِ سِنِّي ، وَانْقِطَاعِ عُمُرِيْ »[2] .

١٠ ـ طلب صَلاح آخر العمر ، وسعادته وفَلاحه :

لم يكتَفِ ﷺ بطلب السَّعة في الرزق في آخر العُمر ، بل دَعا أن يَسُوْدَ هذه المرحلةَ الباقيةَ مِن العمر خيرٌ من كلِّ جانبٍ ، وأن تكونَ آخرُ المراحل أسعدَها ، وأفلحَها ، وأصلحَها ، فيقول :

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٩٤) برقم (٨١٠) من حديث عقبة بن عامر ، رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٢٠) : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه، الحاكم في المستدرك عن عائشة ، رضي الله عنها (١/ ٧٢٦) برقم (١٩٨٧) وقال : هذا حديث حسن الإسناد والمتن ، غريب في الدعاء ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٨٢) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وإسناده حسنٌ .

« واجْعَلْ خَيْرَ عُمُرِيْ آخِرَهُ ، وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِيْمَهُ ، وَخَيْرَ أَيَّامِي يَوْمَ أَلْقَاكَ فِيْهِ »[1] .

١١ ـ طلب فجأة الخير ، وسؤال النَّجاة مِن فجأة الشَّر :

ما مِن شكٍّ في أنَّ الخيرَ والنعمةَ من مَلاكِ السُّرور ، والراحة ، إلَّا أنَّ الخير الذي يُصيبُ الإنسانَ فجأةً ، ويُساق إليه بغتةً يجلب سروراً يفوق الوصفَ ، ومِن هنالك إذا كانت الشُّرورُ والفِتَنُ ممَّا تجب منه الاستعاذةُ والاستخلاصُ مرَّةً ، فالشرُّ الذي يفاجأُ به الإنسانُ ، وينوبه مصادفةً تجب الاستعاذةُ منه مئة مرَّةٍ ، والذين جابهوا ذلك ، وجرَّبوه يعرفونه جيِّداً ، فكَمْ مِنَّا من يتذكَّرُ خُطورةَ هذا الأمر ، وهَولَه ، فيستعيذ منه ، ولم يفُتِ النبيَّ ﷺ أن يذكُرَ ذلك في دُعائه :

« اللَّهُمَّ ! إنِّي أَسْأَلُكَ فَجْأَةَ الْخَيْرِ ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْ فَجْأَةِ الشَّرِّ »[2] .

١٢ ـ الاستعاذة من زَوال النِّعمة بعد حُصولها :

كذلك الفقرُ والاحتياجُ بعد العيش السَّعيد والرزق الرَّغيد ،

---

(١) هذا جزءٌ من الحديث ؛ أخرجه الطبراني في الأوسط (٩/ ١٧٢) برقم (٩٤٤٨) عن أنس ، رضي الله عنه ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ، (١٠/ ١٥٧) ، والديلمي في الفردوس (١/ ٤٨٠) برقم (١٩٦٢) ، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٥٤) برقم (١٦٦٣) .

(٢) أخرجه أبو يعلى في المسند (٦/ ١٠٦) برقم (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١١٥): رواه أبو يعلى، وفيه يوسف بن عطية وهو متروكٌ.

والعُسْر بعد اليُسْر ، ممَّا تجب الاستعاذةُ منه ، فإنَّ ذلك ابتلاءٌ شديدٌ، ومحنةٌ خطيرةٌ، وقد دَعَا له ﷺ بكلِّ عنايةٍ :

« اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَفَجْأَةِ نَقْمَتِكَ [وجَمِيْع سَخَطِكَ] »[١] .

١٣ ـ الاستعاذةُ مِن أَرْذَلِ العُمر :

إنَّ طُوْلَ العُمر ممَّا طلَبَه الإنسانُ دَوْماً مُنذ اليوم الأوَّل ، وقد جَرَتِ العادةُ أن يدعو البعضُ للبعض بطُول العمر ، والبركة في الحياة ، لكنَّ طولَ العمر الذي يفقد القُوَى ، ويجعل الإنسانَ عاجزاً عاطلاً كَلاً على غيره شيءٌ تجب الاستعاذةُ منه ، فيدعو النبيُّ ﷺ ربَّه .

« اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ ، وَالْكَسَلِ ، وَالْجُبْنِ ، والْهَرَمِ ، ومِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ »[٢] .

١٤ ـ الاستعاذة من نفس حَريصة لا تَشبع ، ومن علم عقيم لا يَنفع :

الأموالُ يراها الإنسانُ كغايةٍ ، وأكبر شيءٍ في الحياة ، ولا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاة والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره ، برقم (٢٧٠٦) ، والنسائي في كتاب الصلاة ، باب التهليل بعد التسليم ، برقم (١٣٤٧) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب في الاستعاذة ، برقم (١٥٤٥) من حديث عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب التعوّذ من أرذل العمر ، برقم (٦٣٧١) ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء . . . ، باب التعوّذ من العجز والكسل وغيره ، برقم (٦٨٧٣) من حديث أنس بن مالك ، رضي الله عنه .

يذكُرُ : أنَّ الكثرة الكاثِرة ، والكَمِّيَّة الكُبرى من الثروة لا تكفي لنفسٍ حريصةٍ ، والنفسُ التي لا تشبَعُ إنها لمصيبة للإنسان نفسه ، وللعالم كلِّه ، ولذلك استعاذَ منهما الحكيمُ الرَّباني ﷺ وأَوصانا بالاستعاذة ، كذلك العِلْمُ الذي لم يُكسب صاحبَه الخشيةَ والتقى ، ولم ينفع الناسَ . والقلب الجريء الذي حُرِمَ خشية الله ، وتجرَّدَ مِن خوف خالِقِه ، كلُّ ذلك تجب الاستعاذةُ منه ، والتحصُّنُ منه ، فقد جَنَى على الإنسانية ما لم يَجْنِ عليها الأعداءُ ، وقد حَوَى النبيُّ ﷺ كلَّ ذلك في دُعاءٍ واحدٍ :

« اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِن قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، أَعُوْذُ بِكَ مِنْ هٰؤُلَاءِ الأَرْبَعِ »[١] .

١٥ ـ بعض الحوائج الأساسية والجَذرية في الحياة :

إنَّ مِن الحوائج الجَذرية الواقعية التي لا مَعْدَى[٢] للبشر عنها ـ لكي يحيا حياةً سعيدةً ـ هي الدَّارُ الواسعةُ مع الرزق الواسع ، إنها حاجة لم تقِلَّ أهميةً في أيِّ فترة من الزمان ، أمَّا في الحياة المعاصرة فقد أصبَحَتْ تُشَكِّلُ مشكلةً كبيرةً ، وأصبَحَتْ مِن أهمِّ متطَلَّبات الحياة ، غير أنه يجب أن لا يفوتنا أن نتذكَّرَ : أنَّ سَعة الدار ليستْ كلَّ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب ما جاء في جامع الدعوات عن رسول الله ﷺ ، برقم (٣٤٧٨) ، وقال : هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ ، والنّسائي في كتاب الاستعاذة ، باب الاستعاذة من قلب لا يخشع ، برقم (٥٤٢٦) من حديث عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنهما .

(٢) المَعْدَى : يُقال : مالي عنه مَعْدًى : تجاوُزٌ إلى غيره .

العلاج ، وإنما هو كِفايتها لأَهْلها ، وشُعورهم بسَعتها ، فلو عدم الشعور بسَعتها ؛ لما كفتْ أوسع دار لطبع طموح ، ونفس طمَّاعة ، وعدم هذا الشعور والطُّمأنينة والرِّضا هو السِّرُّ وراء مشكلات الحضارة الحاضرة ، ونُظُم الاقتصاد المعاصرة التي تستعصي على المعالجة ، ولذلك فالنبيُّ الحكيم ﷺ يسألُ ربَّه « السَّعة في الرزق » و « السَّعة في الدار » مكان « سَعة الرزق » و « سعة الدار » ، والفرق بينهما واضحٌ لكلِّ خبيرٍ :

« اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، ووَسِّعْ لِيْ فِي دَارِي ، وَبارِكْ لِي فِيما رَزَقْتَنِي »[1] .

١٦ ـ التعبير عن حاجِيَّات المسافر ومشاعره :

السَّفر من الحوائج التي لا بُدَّ للإنسان منها ، والمُسْلِم ـ بحكم المركز الذي يحتلُّه في الكون ـ يجب ألا تخلو أيُّ خُطوةٍ منه ، بل وأيُّ تحرُّك منه من الدُّعاء ، والاستخارة ، وطلب البرِّ والنجاح ، فالسفر الذي هو مِن أَهَمِّ الخطوات يجب أن يكون مشفوعاً بمزيد من الدُّعاء ، وطلب الخير ، وسُؤال الصَّلاح والفلاح ، فالمسافر يترُكُ دارَه ، وأهلَه ، ويُصادِفُ سفراً طويلاً ، وأمكِنةً جديدةً ، وأُناساً

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات ، باب دعاء يقال في الليل ، برقم (٣٤٩٦) من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه ، وقال : هذا حديثٌ غريبٌ ، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢٤) برقم (٩٩٠٨) ، وأحمد في المسند (٤/ ٣٩٩) برقم (١٩٥٨٩) ، وأبو يعلى في المسند (١٣/ ٢٥٧) برقم (٧٢٧٣) من حديث أبي موسىٰ الأشعري ، رضي الله عنه . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٠٩) : رواه أحمد ، وأبو يعلى ، ورجالهما رجال الصحيح غير عباد بن عباد المازني ، وهو ثقةٌ .

لَا يَأْلَفُهم ، ويقضي مدَّةً في هجرةٍ مِن أهله ، وبُعْدٍ عن وطنه ، ويمُوجُ قلبه بخليط من الآلام والآمال ، ويُساوِرُه الحزنُ على ما تركه وراءه من الوطن ، والأهل ، والمال ، وتخالِطُه الأماني فيما يستقبله ، ثم العناية بالسفر ، والتأهُّبُ له ، ومتاعبه ومشاقه ، وبُعْد المنزل ، والاهتمامُ بالأهداف ، والحنينُ إلى الغايات ، والتطلُّعُ إلى الأغراض ، كلُّ ذلك يُقلِق قلبَه ، ويشوِّشُ ذهنه ، وهو ـ لكي يفوز بالنجاح ـ يحتاج في كلِّ مرحلة من هذه المراحل إلى نصر الله ، ونجدته ، وعونه ، وعصمته .

فانظُرْ كيف جاءَ التعبيرُ جامعاً شاملاً عن كلِّ هذه الحوائج ، والأحاسيس في هذا الدُّعاء المُوجَز ، الذي سوف لا يُمكِن أحداً من البشر ـ مهما تمتَّعَ بذكاءٍ وافر ، وأعمَلَ فكره العميق ـ أن يأتي بدعاءٍ أَشْمَلَ منه ، وأَكْمَلَ ، وأَجْمَلَ ، وأَدَلَّ :

« اللَّهُمَّ ! إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هٰذَا البِرَّ والتَّقْوى ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى . اللَّهُمَّ ! هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا ، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ . اللَّهُمَّ ! أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، والْخَلِيْفَةُ فِي الأَهْلِ . اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ[١] السَّفَرِ ، وكَآبَةِ[٢] الْمَنْظَرِ ، وَسُوْءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الأَهْلِ والْمَالِ »[٣] .

---

(١) وعثاء السفر : أي شِدَّته ومشقَّته ، وأصله من الوَعْث ، وهو الرَّمْل ، والمشيُ فيه يشتَدُّ على صاحبه ويَشُقُّ . (النهاية : ٥/٢٠٦) .

(٢) الكآبةُ : تغيُّر النفس بالانكسار من شدِّة الهمِّ والحُزْن ، والمعنى : أن يرجع من سَفَره بأمرٍ يُحزنه ، إمَّا سوء أصابه في سفره ، وإمَّا أمرٌ قَدِمَ عليه ، مثل أن يعود غير مَقْضِي الحاجة ، أو أصابتْ مالَه آفةٌ ، أو يقدم على أهلِه ، فيجدهم مَرضى ، أو قد فُقِدَ بعضُهم . (النهاية : ٤/١٣٧) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحج ، باب استحباب الذكر إذا ركب دابته . . . ، برقم=

غير أنَّه ليس السفرُ هو الذي يستحِقُّ العنايةَ بالدُّعاء فحسب ، بل ينبغي للمسافر أن يطلب الخير والبركة كُلَّما أتى مكاناً جديداً، ودَخل مَثوىً جديداً ، فقد جاءَ في الحديث الشريف : أنَّ النبيَّ ﷺ كان يكرِّرُ ثلاثَ مرَّات كلَّما دخل قريةً : « اللَّهُمَّ ! بَارِكْ لَنَا فِيْهَا » ثم يقول: « اللَّهُمَّ ! ارْزُقْنَا جَنَاهَا »[1] وكل مسافر بصورةٍ عامَّةٍ ؛ والمسافر الذي يحمِلُ دعوةً ورسالةً بصورةٍ أخصَّ ، يحتاج إلى أن يحرِزَ حبَّ أهل القرية التي نزل بها ، لكي يرتاحَ ضميرُه ، ويطمئنَّ قلبُه ، ثم لكي تتمكَّنَ رسالتُه من القلوب ، إلَّا أنَّ المُسْلِم تحتم عليه عقيدتُه ودينه ألا يقصد إلَّا حبَّ أهل الصَّلاح والفلاح ، والدِّين والتُّقى ، ولذلك يقولُ ﷺ في دُعائه :

« وحَبِّبْنَا إلى أَهْلِهَا ، وحَبِّبْ صَالِحِي أَهْلِهَا إِلَيْنَا »[2] .

١٧ ـ الدُّعاء عند إقبال اللَّيل والنَّهار :

ليس السَّفرُ ، أو المنزِلُ هما اللَّذان يستحِقَّان من المؤمن العناية بالدُّعاء والاستخارة فحسب ، لا ، بل يجب أن يطلبَ المؤمنُ مِن

= (٣٢٧٥) ، وأبو داود في كتاب الجهاد ، باب ما يقول الرجل إذا سافر ، برقم (٢٥٩٩) ، وابن حبان في الصحيح ، في ذكر الخبر المدحض قول مَن زعم أن الخبر . . . برقم (٢٦٧١) من حديث عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنهما .

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٨٨) برقم (٤٧٥٥) عن ابن عمر ، وفيه أنه : كنا نسافر مع رسول الله ﷺ فإذا رأى القريةَ يريد أن يدخلها ؛ قال : « اللهمَّ بَارِكْ لنا فيها » ثلاث مرَّات و« اللهمَّ ارزقنا جناها ، وحبِّبْنا إلى أهْلِها ، وحبِّبْ صَالِحِي أَهْلِهَا إِلينا » .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٨٨) برقم (٤٧٥٥) عن ابن عمر ، رضي الله عنهما .

ربِّه لدى إقبال كلِّ ليلٍ ، وإدبار كلِّ نهارٍ ، وبالعكس ما فيهما من الخير والنفع ، ويستعيذ به ممَّا فيهما من الشرِّ والفتنةِ ، ويشهد بأنه هو المَالِك الحقيقي المطلق ، سائلاً أن يجعل له الحظَّ الأوفر ، والنصيب اللاَّئق ممَّا فيهما من الصَّلاح والبركة والنجاح ، وينبغي أن يستحضِرَ لدى كلِّ تطوُّرٍ وتغيُّرٍ يمرُّ به هذه الحقيقة الكبرى ، فقد جاءَ في الحديث الشريف : أنَّ النبيَّ ﷺ كان يدعو كلَّما كان يُمسِي :

« أَمْسَيْنَا ، وَأَمْسَى الْمُلْكُ للهِ ، وَالْحَمْدُ للهِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، ولَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ، رَبِّ ! أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا ، وأَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا ، رَبِّ ! أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ ، وَسُوْءِ الْكِبَرِ . رَبِّ ! أَعُوْذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ »[1] .

ويدعو حينما يُصبح ، فيضع كلمةَ « أَصْبَحْنَا وأَصْبَحَ المُلْكُ للهِ » مكان « أَمْسَيْنَا وأَمْسَى المُلْكُ للهِ » ، وجاء في حديثٍ آخر دعاءٌ بهذه الكلمات :

« أَصْبَحْنَا وأَصْبَحَ المُلْكُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ . اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هٰذَا اليَوْمِ : فَتْحَهُ ، وَنَصْرَهُ ، وَنُوْرَهُ ، وَبَرَكَتَهُ ، وَهُدَاهُ ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيْهِ ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ »[2] .

---

(١) أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر . . . برقم (٦٩٠٨) .

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي مالك ، رضي الله عنه ، في كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح ، برقم (٥٠٨٤) .

١٨ ـ الاستعاذة من شرِّ النَّفس :

لا شكَّ في أنَّ أخْوَفَ ما يجب أن يخافه الإنسانُ ، وأجدَرَ ما يجب أن يستعيذ منه البشَرُ هو شرُّ نفسه ، بكلِّ ما شَهِدَه العالمُ من فظائع الدَّمار والهلاك ، ومظاهر الوحشيَّة والاستبداد ، ومن خسارة الدُّنيا والآخرة ، كلُّ ذلك يرجع إلى شرِّ النفس » ، ولذلك أكثَرَ الرَّسولُ ﷺ من الاستعاذة من هذا العدوِّ الألَدِّ ، فقد جاءَ في دُعائه عند الصَّباح :

« اللَّهُمَّ ! فَاطِرَ السَّمَواتِ والأَرْضِ ، عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ ، أَنْتَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، والمَلائِكَةُ يَشْهَدُوْنَ أَنَّكَ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ ، فَإِنَّا نَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ أَنْفُسِنَا ، ومِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ وَشِرْكِهِ ، وَأَنْ نَقْتَرِفَ سُوْءاً [عَلَى أَنْفُسِنَا] ، أَوْ نَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِم »[١] .

وجاءَ في دعاءٍ آخر :

« اللَّهُمَّ ! قِنِيْ شَرَّ نَفْسِي ، واعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي »[٢] .

وجاءَ في دعاءٍ آخر :

« يَا حَيُّ يَا قَيُّوْم ! بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ ، أَصْلِحْ لِيْ شَأْنِيْ كُلَّهُ ، وَلَا تَكِلْنِيْ إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ »[٣] .

---

(١) أخرجه أبو داود عن أبي مالك رضي الله عنه ، في كتاب الأدب ، باب ما يقولُ إذا أصبح . . . ، برقم (٥٠٨٣) .

(٢) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (١/ ٣٨١) برقم (٥٧٠) ، والطبراني في الأوسط (٤/ ٤٣) ، برقم (٣٥٦٥) من حديث أنس بن مالك ، رضي الله عنه .

(٣) أخرجه النَّسائي في السنن الكُبرى ، عن أنس رضي الله عنه (٦/ ١٤٧) برقم (١٠٤٠٥) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٣٠) برقم (٢٠٠٠) ، وقال : هذا=

١٩ ـ طلب الخشية واليقين :

إنَّ ما يقِفُ سدَّاً منيعاً ، وسياجاً حديديَّاً بين العبد وشرِّ النفس والمعاصي ، هو خشيةُ الله ، والذي يهوِّنُ على العبد ضربة البلايا ، والرزايا ، ويخفِّفُ له أثرَ المآسي والمصائب هو اليقينُ ، فيقول ﷺ :

« اللَّهُمَّ ! اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُوْلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَك ، وَمِنَ اليَقِيْنِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيْبَاتِ الدُّنْيَا »[١] .

٢٠ ـ مُنطَلق الشُّرور والمعاصي والاستعاذة منه :

إنَّ منطلقَ هذه الشُّرور والمَعاصي ، وأَنْشَطَ ، وَأَقْوَى عَاملٍ مِن عواملها هو حبُّ الدنيا ، إنَّه مَنْبَع الخطيئات كلِّها ، فقد جاء في الحديث الشريف : « حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيْئَةٍ »[٢] . أمَّا طبيعة النبوَّة ؛ فهي : « اللَّهُمَّ ! لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَة »[٣] ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ

= حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرِّجاه ، والبيهقي في الشعب (١/ ٤٧٧) ، برقم (٧٦١) ، وقال الهيثمي مجمع الزوائد (١٠/ ١٨٠) : وقال : رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن طريق سلمة بن حرب بن زياد الكلابي ، عن أبي مدرك ، عن أنس ، وقد ذكر الذهبي سلمة في « الميزان » فقال مجهولٌ كشيخه .

(١) هذا جزءٌ من الحديث انفرد به الترمذي ، وأخرجه عن ابن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ في كتاب الدعوات ، باب دعاء : « اللَّهمَّ اقسم لنا من خشيتك . . . » ، برقم (٣٥٠٢) ، وقال : هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ .

(٢) حديث ضعيف ، انظر : « المقاصد الحسنة » ص(٣٨٤) ، و« كشف الخفاء » (١/ ٤١٢) ، برقم (١٠٩٩) .

(٣) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير ، باب البيعة في الحرب . . . ، برقم =

﴿ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] ، وقد جاءَ في دعائه ﷺ :

« وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا ، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا ، وَلَا غَايَةَ رَغْبَتِنَا ، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا »(١) .

٢١ ـ حبُّ الله هو الدَّواء الوحيد لكلِّ داءٍ :

بالتأكيد : إنّ الّذي يسهِّل الدِّينَ ، ويحبّبه إلى القلوب ، ويكرِّه إليها العصيان والفسوق ، ويستخرِج حبَّ الدنيا من أعماقها ـ فتُصبح كلُّ عظمةٍ في الدنيـا شيئاً لا قيمةَ له ، وحينئذٍ يفقد كلُّ جميلٍ في الكَوْن جمالَه ، وكلُّ عظيمٍ عظمتَه ـ والذي يُثبِّت القلوبَ والأقدامَ لدى كلِّ ابتلاءٍ ومحنةٍ ، هو حبُّ الله الخالص من كلِّ شائبةٍ ! إلَّا أنَّ القلب الذي تمكَّن مِن هذا الحبِّ ، وتغلَّب على هذا الهُيَام لم يَهَبْ ـ ولن يَهَابَ ـ أيَّ جلالٍ ، ولم يأخذه ـ ولن يأخذه ـ أيُّ جمالٍ ، وقد تغنَّى بذلك شاعرُ الإسلام الدكتور محمد إقبال في شعره الأُرْدُوي ، فقالَ : « حبُّ اللهِ عجبٌ في عجبٍ ، فإنَّه يجعل القلبَ يستغني عن العالمين بما فيهما » .

= (٢٩٦١) ، وفي كتاب مناقب الأنصار ، باب دعاء النبي ﷺ : « أصلح الأنصـار . . . » بـرقـم (٣٧٩٦) ، وفـي كتـاب الـرقـاق ، بـاب الصحة والفراغ . . . ، برقم (٦٤١٣) ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة الأحزاب ، برقم (٤٦٧٢) و(٤٦٧٤) والترمذي في أبواب المناقب ، باب مناقب سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ برقم (٣٨٥٦) ، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٨٥) برقم (٨٣١٦) ، وغيرهم من حديث أنس بن مالك ، رضي الله عنه .

(١) هذا بعض الحديث ، انفرد به الترمذي ، وأخرجه عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في كتاب الدعوات ، باب دعاء : اللهم اقسم لنا . . . ، برقم (٣٥٠٢) ، وقال : هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ .

إنَّ العلاقةَ التي تقوم على أساسٍ من الحُدود ، والقُيود ، والطاعة التي تفرضها الأَوامر ، والنَّواهي لن تقوما مقام هذا الحبِّ ، ولن تقوما بالدَّور الَّذي تقوم به هذه العلاقةُ ، فإنَّ القوانين ربما تؤدِّي إلى اتِّخاذ « الباب السِّرِّيِّ » و « المدخل الخَلْفِي » ثم إنَّ القوانين تأتي بالتأويلات ، وتأخذ الكلمات فتحمِّلها ما لا تحتمل ، ثم إنَّها تملُّ ، فتضع السِّلاحَ ، أمَّا الحبُّ فلم يعرف التأويلَ والمَلَلَ ، وبعد عن الكلِّ ، وتعالى عن الاستكانة والاسترخاء ، فهو داءٌ ودواءٌ ، وإنَّ هؤلاء العُشَّاق ـ كما قال الشاعرُ الفارسيُّ ـ لا يبالون بوُعُورة الطريق ، بما أنَّ الحُبَّ هو طريقٌ ومنزلٌ معاً ، ولذلك فالنبيُّ ﷺ عُنِيَ بالدُّعاء لهذا الحُبِّ أَبْلَغَ العناية ، وأَكْمَلها :

« اللَّهُمَّ ! اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِليَّ مِنْ نَفْسِي ، وَأَهْلِي ، وَمِنَ المَاءِ البَارِدِ »[1] .

وجاءَ في دعاءٍ آخر :

« اللَّهُمَّ ! اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ الأَشْيَاءِ إِليَّ ، وَاجْعَلْ خَشْيَتَكَ أَخْوَفَ الأَشْيَاءِ عِنْدِي ، وَاقْطَعْ عَنِّي حَاجَاتِ الدُّنْيَا بِالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِكَ ، وَإِذَا أَقْرَرْتَ عَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ دُنْيَاهُمْ ؛ فَأَقْرِرْ عَيْنَيَّ مِنْ عِبَادَتِكَ »[2] .

وجاء في دعاءٍ آخر :

---

(١) انفرد به الترمذي ، وأخرجه عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ في أبواب الدعوات ، باب دعاء داود : اللهم إني أسألك . . . ، برقم (٣٤٩٠) .

(٢) أخرجه الديلميُّ في الفردوس (١/ ٤٨١) ، برقم (١٩٦٥) عن أبي مالك ، رضي الله عنه .

« اللَّهُمَّ ! ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ .

اللَّهُمَّ ! مَا رَزَقْتَنِيْ مِمَّا أُحِبُّ ؛ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيْمَا تُحِبُّ .

اللَّهُمَّ ! وَمَا زَوَيْتَ[1] عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ ؛ فَاجْعَلْهُ فَرَاغاً لِي فِيْمَا تُحِبُّ »[2] .

٢٢ ـ طلب نَصْر الله وعَوْنه وعَطْفه وكَرَمه :

بَيْدَ أنَّ هذا الحُبَّ ، وهذه الطاعةَ ، والتوفيقَ للعبادة ، والذكرَ ، والشكرَ ، كلُّ ذلك مَنُوْطٌ بعطف الله وكرمه ، ويتوقَّفُ على إعانته ، ونُصرته ، ولذلك أوصى حبيبُ ربِّ العالمين ﷺ أحدَ أصحابِه[3] بهذه الكلماتِ التي تتدفَّقُ بالحبِّ ، وتفيضُ بالحَنان .

« يَا مُعَاذُ ! وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ ، أُوْصِيْكَ يَا مُعَاذُ ! لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ أَنْ تَقُوْلَ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلىٰ ذِكْرِكَ ، وَشُكْرِكَ ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ »[4] .

شهادة القلب السَّليم :

هذه هي الأدعيةُ المأثورةُ ـ التي ألقينا على نَذْرٍ منها نظرةً عابرةً ،

---

(١) زويتَ عنِّي : أي : صَرَفْتَه عني ، وقَبَضْتَه .

(٢) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخَطْمِيِّ الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ في أبواب الدعوات ، باب دعاء اللهم ارزقني حبَّك . . . ، برقم (٣٤٩١) وقال : هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ .

(٣) هو معاذ بن جبل ، رضي الله عنه .

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب في الاستغفار ، برقم (١٥٢٢) ، والنَّسائي في كتاب السهو ، باب الدعاء بعد الذكر ، برقم (١٣٠٤) ، وأحمد في المسند (٥/ ٢٤٤) برقم (٢٢١٧٢) ، وغيرهم من حديث معاذ بن جبل ، رضي الله عنه .

يتجلَّى فيها كلَّ التجلِّي نورُ النبوَّة ، ويقينها ، وحِكمة الأنبياء ، وعِلْمهم ، وحبُّهم ، وعِرفانهم ، وهي مزيةُ الأنبياء كلِّهم عامة ، ومن سِمَات سيِّد الأنبياء ﷺ خاصَّةً .

وإنَّ القلبَ ـ إذا كان على فِطْرته الصحيحة التي فَطَرَه الله عليها ـ سيشهد كلَّما يمرُّ بهذه الأدعية بأنَّها مِن كلام النبيِّ المعصوم المَصُوْن ﷺ الذي لا ينطِقُ عن الهوى إنْ هو إلَّا وَحْيٌ يُوْحىٰ ، كما شهد القلبُ السليم في صدر عبد الله بن سَلاَم[1] ـ رضي الله عنه ـ حينما وَقَعَ نظرُه على وجه النَّبيِّ ﷺ : « والله ، هَذا لَيْسَ بوَجْهِ كَذَّابٍ »[2] .

وقد شَهِدَ بالأمرين كِليهما العارفُ الرُّوْمي ـ مولانا جلال الدِّين الرُّوْمِي[3] ـ في شعره الفارسيِّ :

---

(١) هو عبدِ الله بن سَلاَم بن الحارث الإسرائيلي ، أسلمَ عند قُدوم النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه « حصين » فسمَّاه النبيُّ ﷺ عبد الله » . شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية ، أقام بالمدينة ، وتوفي بها عام ٤٣هـ .

(٢) انظر : « مصنف ابن أبي شيبة » (٥/ ٢١٧) ، برقم (٢٥٣٨٩) ، و« مسند الشِّهاب » (١/ ٤١٨) ، برقم (٧١٩) ، و« صفوة الصفوة » (١/ ٧١٩) .

(٣) هو محمد جلال الدين الملقَّب مولانا الرومي ، يتصل نسبه بأبي بكر الصديق ، رضي الله عنه . كان شاعراً صوفياً ، اختار التصوُّفَ سبيلاً في حياته العملية ، واختاره فلسفةً روحيةً لفكره وفنِّه الرفيع ، وقد امتزجت حياته الفكرية بحياته العملية بصورة جعلت تصوُّفه مزيجاً من الفلسفة والحكمة العملية .
لم يكن تصوُّفه من ذلك النوع السلبيِّ الذي يدع الحياةَ وما فيها ، ويدعو إلى هجرها والفناء عنها فناءً كاملاً ، بل هو تصوُّف بنَّاء ، يستمدُّ عناصره من الإنسان ، ويتعمَّق في بحث مشاكله الروحية والعملية ، ويُحاوِل أن يرسم له المُثل العليا في الفكر والعمل ، يُعنَى بالحياة التي يحياها البشرُ . وليس الروميُّ مبدع هذا الاتجاه في التصوُّف ، ولكنه أفصح الألسنة في التعبير عنه ، وألمع العقول في ابتداع فلسفته ، وابتكار أفكاره .
توفّي في مسقط رأسه « قونية » عام ٦٧٢هـ . من آثاره « المثنويّ » والذي أجمع=

« إنَّ أَلم القلبِ ، وجُرْحه اللّذين يُعانِيهما العُشّاق لذةٌ في لذةٍ لمن يعرف حقيقة هذا الألم ، وإنَّ كلام النبيِّ ووجهه كِليهما معجزةٌ من المعجزات » .

فلئنْ كانت أبوابُ السِّير ، والأعمال ، والأخلاق ، والعبادات ، قد دلَّتْ على كمال النبوَّة وفضلها ، وعلومها وحكمتها ، فإنَّ هذه الأدعية المأثورة دليلٌ مِن دلائل النبوَّة ، ومعجزةٌ مِن معجزاتها .

فما أَسْعَدَ الأمَّة التي وَرِثَتْ مِن نبيِّها ـ محمَّد رسول الله ﷺ ـ مفتاحَ الدين والدنيا ، ونعم الغيب ، وثروته ؟! وبالعكس ، ما أشقى تلك الأمَّة التي لم تتمتَّع بهذا المفتاح ، ولم تستخدم هذا السِّلاح ؟!

وأخيراً ، لا بُدَّ مِن إثبات حقيقةٍ كُبرى : إنَّ مِن شَقَاء المنكرين للسُّنَّة ـ بالإضافة إلى خسائرهم الأخرى الكثيرة الكبيرة ـ إنَّهم حُرِموا تلك الأدعية المأثورة ، والكلمات النبوية التي هي جزءٌ من الأحاديث ، فالشُّبهات التي تمكَّنَتْ من قلوبهم في صحة الأحاديث وثبوتها ، حالتْ ـ طبيعياً ومنطقياً ـ بينهم وبين التمتُّعِ بهذه الثروة الغيبية الغنية ، واتخاذها وسيلةً إلى التضرُّع والتعبير عمَّا في القلب ، وكَفىٰ به عِقاباً .

= المفكِّرون والمحقِّقون على أنه يُعَدُّ في طليعة المأثورات الأدبية العالمية . .

أدب الرحلات

بالنسبة لأدب الأسفار والرحلات صدر للعلاَّمة الندوي : « مذكِّرات سائح في الشرق العربي » ، كما صدر كتابه : « من نهر كابُل إلى نهر اليرموك » ، وكذلك صدر له نوع يمكن أن نطلق عليه أدب الرسائل وإن كان يدخل ضمناً في أدب الرحلات ، ولنطالع كتابه : « كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز والجزيرة العربية » و « خطابات صريحة إلى الرؤساء والأمراء » .

دأب العلامة الندوي على تنقيح كتاباته ، وتصحيحها ، وإضافة معلومات جديدة عليها ، ومعظم كتبه كانت مجرَّد فكرة نشرها في مقال ، فكانت الرحلة إلى هنا ، أو هناك دافعاً له لإعادة التفكير في الكتابة بالتفصيل عن الموضوع ذاته .

فكتابه : « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية » كان مقالاً كتبه في فبراير ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م بعنوان : « موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية » وبعد سنوات وكما يقول المؤلف نفسه :

« أُتيح لي السفرُ إلى أوربة ، ورأيت مركز هذه الحضارة ، ومعقلها عن كثب ، واستفدت من هذه الرحلة في الاطلاع على بعض المصادر العلمية الحديثة ، فقدمت كتاباً جديداً ينشر الآن تحت عنوان : « الصراع بين الفكرة . . . إلخ » .

إذا قلنا : إنَّ الرحلة في العلاَّمة الندوي هي الدافع لمعظم كتاباته ؛ فربما لا يجانبنا الصوابُ في هذا القول ، فهو عالم جليل ، عالم متبحر في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، حرص على أن يضيء مشعل الحضارة الإسلامية في الهند بنور التعليمات الإسلامية الأصيلة ، والمضي على درب سنة الرسول ﷺ ، ولهذا اهتم كثيراً ببيان هذا الهدف في رحلاته خارج البلاد ، وكان دائماً يضع نتائج رحلاته في كتاب يتضمن رحلته ، والأمثلة على ذلك كثيرة سنوردها فيما بعد .

فهو منذ بدء حياته العملية بل وقبلها يسافر داخل الهند إلى هنا وهناك طلباً للعلم ، ولقاء العلماء ، والتعرف على أحوال البلاد والعباد .

من خلال قراءة ما كتب العلاَّمة يتضح : أنه عشق السفرَ ، لا للسياحة ؛ ذلك لأن الإسلام الدين الحنيف يدعو إلى السفر طلباً للمعرفة ، وطلباً للعلم ، ونشراً لدين الله الحنيف بين الناس ، وهكذا جعل الإسلام السفر تراثاً يتصل بالتاريخ الإسلامي لدى جميع الشعوب الإسلامية ، والتاريخ الإسلامي له مكانة خاصَّةً لدى العلاَّمة الندوي ، ومن هنا كان السفر والارتحال جزءاً أصيلاً من فكره ، وكان السفر والارتحال هو الدافع لمعظم كتاباته بلا مبالغة .

وإذا كانت كتبُ الرحلات تقدِّم قصصاً ، وحكايات قد يكون بعضها حقيقياً ، وبعضها من نسيج الخيال ، إلا أن الأمر يختلف عند العلامة الندوي، فهو لا يقدم حكاية ولا قصة، بل يقدم رسالة سامية؛ تحمل هدفاً سامياً ، وهو الدعوة إلى الله ، ورفعة شأن المسلمين .

لقد تعدَّدت أسبابُ الرحلة ، وتنوَّعت ، وقسَّم البعضُ الرحلات إلى أقسام عديدة ، وصلت أحياناً إلى خمسة عشر قسماً[1] ، إلا أن أهم الرحلات كانت رحلات الحج ، ورحلات الدعوة والتبليغ ، ورحلات العمل خارج الوطن ، أو جمع تبرعات لأهداف دينية ، ورحلات علمية الهدف ، منها طلب العلم ، وهو سببٌ من أقدم الأسباب التي دفعت الناس للرحلة .

وإذا كنا نبحث عن أسباب الرحلة لدى العلامة الندوي ؛ فإن طلب العلم كان من الأسباب الرئيسة التي دفعته للرحلة خارج ، وداخل شبه القارة ، كما كانت رحلة الحج رحلة تاق إليها قلبُه منذ صغره كما سيتضح لنا بعد ذلك ، وإذا كان قد ارتحل لأداء مهمة عمل بجامعة ، أو مؤسسة فإنه حوَّل هذه المهمة إلى هدفه الأساسي ، وهو الدعوة إلى دين الله .

وهذا واضحٌ من خلال الكتب التي صدرت بعد فترة الرحلة التي كان هدفَها الظاهري عملٌ ما ، أو القيام بمهام علمية هنا ، أو هناك ، فلم تكن للرحلة الشخصية التي يقوم بها الشخص حباً منه في السفر ، والترحال ، ورغبة منه في التمتع بالحياة مجالٌ في حياة العلامة الندوي . فهو يسافر لهدف ، ويسافر لغاية ؛ وإلا فالأعمال في وطنه تحتاج إليه دائماً .

وكان العلامة الندوي يتجول أحياناً عبر التاريخ ، يغمض عينيه تتراءى أمامه صُور الماضي ، وعظمة الإسلام ، ويظل يطالع هذا

---

(١) أدب الرحلة : للدكتور حسين نصَّار ، ص(١٩ ـ ٢٠) .

التاريخ حتى ينتبه إلى الموقع ، وكان الشعور التاريخي لا يفارق العلامةَ أبداً وقد اعترف بهذا حين قال :

« عفا الله عن المؤرِّخين والمشتغلين بالتاريخ ، إنهم لا يفارقهم الشعور التاريخي والتفكير في أقدس مكانٍ وأفضل زمانٍ (يقصد المسجد النبوي) إنهم أينما كانوا يعيشون فيما درسوه ويصلون الحاضر بالماضي »[(١)] .

ويجول العلاَّمة في أعماق التاريخ رحلة في الخيال ، فيقول :

« حانت مني التفاتة فرأيت فريقاً يدخل من باب جبريل - وهو أقرب الأبواب إليّ - عليهم السكينة والوقار ، يعلوهم نور العلم ، وسيماء التفكير ، وقد ملؤوا الرحاب بين باب جبريل باليسار إلى باب الرحمة باليمين ، منعت كثرتُهم عن العد والتشخيص ، سألت البواب عنهم ، فقال : هؤلاء أعلام الأمة ، وأئمة العلم ، وعباقرة الإنسانية ، ونوابغ الوجود ، كل واحد منهم إمام أمة ، ومؤسس مكتبة . . وقد سمَّى منهم على عجل واحتشام : مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النعمان ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، وأبا عبد الله أحمد بن حنبل ، و . . . و . . . وتقي الدين بن تيمية . . وأحمد بن عبد الرحيم الدِّهلوي على تفاوتهم في الزمان ، والمكان ، وأصالة العلم ، وعلو الشأن .

رأيتهم بدؤوا بتحية المسجد ، وصلُّوا ركعتين في خشوع وقنوت . . ولم أكن قد قضيت لبانتي من هذه الجماعة حتى لفت

---

(١) الطريق إلى المدينة : للعلامة الندوي، ص(٣٨) .

نظري فريقٌ آخر يدخل من باب الرحمة ، عليهم سيما الصلاح والعبادة ، وفي وجوههم أثر التقشف والزهادة . . .

ولم أستوف كلماتهم الحكيمة حتى لفت نظري فريقٌ يدخل من باب النساء في حشمه وتستُّرٍ . . . »[1] .

ويظلُّ المؤلفُ ينظر ويشاهد جماعات ، وجماعات ، ويستمع إلى دعائهم ومناجاتهم ؛ حتى انتبه على صوت المؤذِّن يرتفع عالياً على منائر مسجد الرسول ﷺ : الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر .

« وأفقتُ من غفوتي ، وما كنت أسبح فيه من عالم الخيال والتاريخ ، وإذا بي أمام الواقع : رجال في الصلاة ، ورجال في تلاوة القرآن ، وجموع من المسلمين ، ووفود من العالم الإسلامي ، وخليط من الأصوات والانطباعات والعواطف »[2] .

وهكذا كان يرتحل العلامة الندوي في التاريخ ، ويدوِّن مشاهداته لنا ، وقد دوَّن أيضاً مشاهدات إقبال في رحلته إلى جزيرة العرب ، وكان العلاَّمةُ حريصاً على ذلك أشد الحرص ؛ لأنه كان يشعر بنفسه مكان إقبال ، واتحدتْ مشاعر الأديبين معاً ، ولهذا حرص العلاَّمةُ على أن يحكي رحلة إقبال وهو قادم إلى مدينة رسول الله ﷺ وخاصة أن إقبالاً كان كلما ذُكرت المدينة ؛ فاضت عينه ، وانهمرت الدموع منها ، فلم يُقدَّر له الحج ، وزيارة مسجد الرسول لمرض ألمَّ به ، ولكنه رحل إلى الحجاز بخياله القوي[3] .

---

(١) الطريق إلى المدينة : ص (٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢) .
(٢) الطريق إلى المدينة : ص(٤٩).
(٣) روائع إقبال : للعلامة الندوي ، ص (١٨٨) .

أمَّا عن لغة الرحلة فماذا نقول ؟ إنَّه كان أديباً ، يشهد له الجميع إذا ما كتب بالأردية أو بالعربية ، ولهذا ساد الطابع الأدبي كتاباته ، وزخرت مادة رحلاته بالعناصر الأدبية ، مما يجعلنا نطلق هنا على كتاباته : أدب الرحلة ، فرحلاته صدرت على مستوى أدبي رفيع ، ضمنها الأشعار ، والأمثال ، والحكم ، وأدمج في سطورها آيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، التي ربما احتاج إليها للتعليق على موقف ، أو الفصل في قضية ما .

وعادةً ما كانت المشاعر الفياضة تغلب على العلاَّمة فتفيض على أسلوبه ، فتأتي لغته العربية أو الأرديةُ رفيعة المستوى ، عظيمة التأثير والإبداع ، مما يجعل لرحلاته قيمة أدبية نظراً إلى روعة الأسلوب الذي يصل بها إلى مستوى الخيال الفني في معظم الأحيان[١] .

---

(١) الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردية : للدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، ص(٣ ـ ٥) .

أدب التراجم

نحاول في هذا العرض توضيحَ العلاقة بين منهج الترجمة عند العلامة الندوي ومعالم التجديد فيه ، وبين مناهج المترجمين والمصنفين القدماء منذ ظهور كتب الطبقات : طبقات الصحابة ، واللغويين ، والنُّحاة ، والأطباء ، ومنذ انتشار تراجم الرجال ، وطبقات الأدباء ، والشعراء ، والمتصوفة ، والفقهاء ، وسِيَر المصلحين والعلماء .

فقد نشأ العلامةُ الندوي في « بيئة كانت هوايتها التاريخ والتراجم والسير ، ووُلد في أسرة كان فيها مؤرِّخون ، ومؤلفون ، وكان أكثر اشتغالهم بالتأليف في تراجم الرجال »[1] فقرأ كتب التراجم ، وعرف أنواعها ، وضروبها ، وخبر مناهجها وأساليبها ، وعاين أهدافها ومراميها ، ثم عمل على إثراء هذا الفن وإغنائه وتجديده والإضافة إليه .

لذلك يمكن أن نتحدث عن مظاهر كثيرة للتجديد في أدب التراجم لدى العلاَّمة الندوي .

١ ـ إنَّ كتابة التراجم لدى العلاَّمة هو بعث جديد للأساليب الأصيلة لهذا الفن ، وقد كان الغرض من أدب التراجم هو المحافظة

---

(١) شخصيات وكتب : للعلامة الندوي : ص(٧) .

على موروث الأجيال السابقة من العلوم ، والآداب ، والفنون رغم اختلاف مناحي مصنفات التراجم ، واختلاف مفاهيمها ومدارسها منذ ظهور : يتيمة الثعالبي ، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ، مروراً بوفيات الأعيان لابن خلكان ، والمغرب لابن سعيد المغربي ، والذيل والتكملة لابن عبد الملك المرَّاكشي ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، والوافي بالوفيات للصلاح الصفدي ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ، وصولاً إلى ما كُتب من التراجم في القرون الأخيرة ، والتي شكَّلت دائماً ميداناً قائماً بنفسه بعيداً عن الكتابة المعجمية المحضة ، أو الكتابة التاريخية الصرفة ، أو السيرة الذاتية ، أو فنِّ الرحلة .

وكان المصنِّفون والمترجمون يعتمدون أغلب عناصر الترجمة المكونة من اسم المترجم ، ونسبه ، وأصله ، وكنيته ، وذكر مشايخه ، وتلاميذه ، وكتبه ، ومؤلفاته ، ومنزلته العلمية ، ومركزه الاجتماعي ، وعناصر شخصيته ، وبعض أحداث عصره ، ومأثوراته الشعرية والنثرية ، وذكر تاريخ ميلاده ووفاته .

ويعتمد العلاَّمةُ الندوي بعض هذه العناصر ، ولكنه يركِّز على المنزلة العلمية للمترجَم له ، ويبرز جوانب شخصيته المؤثرة ، ليجعل منه قدوة تُتَّبع ، ونبراساً يُحتذى . وبذلك ينقل هدف التراجم من تحقيق الهدف التعليمي ، والحفاظ على التراث التاريخي للأمة ـ كما هو عند المصنفين السابقين ـ إلى هدف آخر يتجلَّى في الجانب التربوي .

٢ ـ مِن هنا يظهر لنا : أن ترجمة العلامة لعالم من العلماء ، أو

رائد من روَّاد الأمة الإسلامية ، ومجدِّدي دعوتها في القديم والحديث لا يتم تقديمه كشخص يعرِّف به مجرد التعريف ، أو ينقل أخباره وآثاره فقط ، ولكن يقدمِّه للقارىء كموضوع للمعرفة ، ومجال للتعلُّم ، ومدرسة لها تأثيرها في حركة الدعوة الإسلامية المتجدِّدة .

٣ ـ ومِن معالم التجديد أيضاً : ربطُ تراجم الرجال بهذه الحركة التجديدية الإسلامية العامة ، والتي ما فتىء علماء المسلمين يدعون إليها ؛ لفهم الأُسس القويمة ، والقيم الصحيحة لبناء المجتمع الإسلامي المعاصر . فهو لا يعتمد في تراجمه على كل الفئات والطوائف من الكتَّاب والشعراء والفقهاء والمتصوفة المشهورين والمغمورين ، كما أَلِفنا ذلك في كتب التراجم ، ولكنه يختار من الرجال ذوي التأثير العلمي والأخلاقي والديني ، ولو تباعدت بينهم الحقب والعصور ؛ لأن الهدف الأساسي هو تكوين خلية متماسكة قوية يكون لها التأثير السحري للدفع بحركة الدعوة الإسلامية الجديدة إلى الأمام .

٤ ـ إنَّ أدب التراجم عند العلاَّمة الندوي يكتسي طابعاً شمولياً من حيث المساحة الزمانية ، والمساحة المكانية .

فهو يترجم لعُمر بن الخطاب ، أو عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنهما ـ، كما يترجم للسيد قطب (الذي استُشهِد عام ١٩٦٦م) ، أو للمرحوم مصطفى السباعي (المتوفى عام ١٩٦٤م) دون التزام بالتسلسل التاريخي ؛ لأن الترجمة عنده تكتسي بُعْداً آخر أسمى ، وأجلَّ من ذكر تواريخ الرجال ، وتتعدى ذلك إلى جعل هذا الفن من

الكتابة رافداً من الروافد المتعددة للدعوة إلى التجديد والإصلاح .

ومن حيث الحَيِّز المكاني ، فهو يشمل كلَّ العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وينقل إلى قراء العربية مآثر العلماء المسلمين في شبه القارة الهندية ، ناهيك عن الأقطار الإسلامية الأخرى .

٥ ـ مِن عناصر التجديد في كتابة التراجم جانب الأسلوب ، فهو أسلوب واضح رقيق ، سهل ممتع ، ينقل القارىء عبر المناطق والمدن والأماكن والأقطار في جولات سياحية لا تُمَلُّ ، ويحبِّب إليه صور الإيمان وصفاء الخلق والإباء ، وعلو الهمة ، ويجعله يعيش متعة روحية من خلال الشخوص التي يقدِّمها ويترجم لها بطريقة تنفذ إلى أعماق النفس الإنسانية . بعيداً عن أساليب السجع والتأنق اللفظي ، وبعيداً عن الأخبار والأحداث والأشخاص ممَّن لم يُشْغَفوا بحبِّ تعاليم الإسلام ، ونشر الدعوة الإسلامية .

٦ ـ إنَّ هذا النوع من كتابة التراجم عند العلاَّمةِ الندوي يجعلنا نطرح سؤالاً دقيقاً وحذراً في نفس الوقت، مؤداه : هل يكفي أن نعتبر هذه المظاهر التجديدية في فنِّ التراجم أمراً طبيعياً يضاف إلى كتابة الترجمة كما عهدناه عند المصنِّفين القدامى ، أم لا بدَّ من البحث عن مصطلح آخر ينضاف إلى فنون الكتابة في هذا المضمار ؟[1] .

شروط جديدة لكتابة التراجم عند العلامة الندوي :

إنَّ كثيراً من الكتَّاب والأدباء ـ فضلاً عن الشاذِّين في اللغات ،

---

(١) من مقال الدكتور الحسين العربي رحمون بتصرُّف واختصار ، المنشور في مجلَّة « البعث الإسلامي » العدد (٤ ـ ٥ ـ ٦) المجلَّد (٤٥) السنة ١٤٢١هـ .

والمتطفِّلين على الآداب ـ يعتبرون موضوع التعريف برجل من ذوي الشأن والخطر وترجمة حياته ووصفه من أسهل الأغراض الأدبية ، والمواد الكتابية ، فيكيلون لمن يترجمون له أو يعرِّفون به ألقاباً ونعوتاً بسخاء ، ويكون أكثرها كلماتُ مدحٍ وإطراء مشتركة ، يمكن أن تقال عن كل عالم وأديب أو عظيم ، أو جليل ، لا تفيد تحديد الشخصية وتعيينها ، ولا تصوير القسمات والمخايل ، ولا التجاعيد التي يمتاز بها وجهٌ عن وجهٍ ، وجسمٌ عن جسمٍ ، واللغة العربية مِن أغنى اللغات في كلمات الوصف والمدح ، والحلية والزينة ، ويكفي الكاتب أو الأديب أن يعتمد في ذلك على تلك الكتب القديمة والحديثة[١] التي كُتبت حول هذا الموضوع ، فيأخذ منها ما يشاء من كلمات الوصف والمدح ، فيجود بها على صاحبه، أو يرجع إلى كتب التراجم والسير ، فيختار منها جُمَلاً وكلمات ، ويصف بها المترجَم له أو الممدوح ومن يكتب عنه ، ولكنَّ وصف شخصية أو ترجمة إنسان ليست من السهولة والعموم بالدرجة التي يتصورها كثيرٌ من الناس ، فإن ذلك يحتاج إلى عدَّة مؤهِّلات .

كما يضع العلامة الندوي لهذا الفنّ شروطاً جديدةً لكتابة التراجم في كتابه : « شخصيات وكتب »[٢] ومنها ما يلي :

١ ـ أن يتوفَّرَ عند الكتابة وجود دافعٍ نبيلٍ ، ورغبةٍ مُلِحَّةٍ تنبع من القلب : من تجاوبٍ مع فكرة ، أو استجابةٍ لنداء الضمير ، أو دفاعٍ

---

(١) مثلاً : « فقه اللغة » للثعالبي ، و « الألفاظ الكتابية » للهمذاني ، و « نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد » لليازجي .
(٢) ص(٦ ـ ٧) .

عن كرامة مهضومة ، وحقٍّ سليب ، أو ردٍّ لاعتبارٍ ، أو وفاءٍ بفضلٍ ، أو إعجاب بجمال أو كمال ، فإن الكتابة إذا تجرَّدت عن هذه العوامل ؛ كانت أشبه برسم خشبي جامد .

٢ ـ المعرفة الشخصية الواعية الناقدة ، وإذا كانت عن طريق المعاشرة والصحبة فهي مِن أقوى المؤهِّلات وإلا فعن الدراسة الأمينة ، وتتبع الأخبار ، وأن تقوم بينهما صلةٌ من الصلات التي تحثُّ على تتبُّعِ الأخبار ، والتعرف على الخصائص .

٣ ـ الاقتدارُ على البيان والتعبير ، وتملُّكِ ثروة لغوية ، وكلمات مميزة فاصلة .

٤ ـ الدقةُ ، والأمانة ، والشعور بالمسؤولية ، والقدرة على تفصيل اللباس على قدر قامة المترجَم له .

٥ ـ أن يعرف المترجِم : أن للكلمات درجة حرارة وبرودة (Temperature) ، فلا توضع كلمةُ ذات حرارة متصاعدة مكانَ كلمة ذات حرارة منخفضة ، فضلاً عن أن توضع كلمةٌ ذات حرارة مكان كلمة ذات برودة ، ولا يسخى بكلمة تعطي صورة هائلة من العظمة والكمال ، أو النبوغ والذكاء ، أو الخلق الحسن ، والسيرة العالية ، أو العلم الغزير لشخصية لا تستحق إلا كلمات فيها التوسّط ، والاقتصاد ، ثم يضعه في طبقته ، ويحدِّد اختصاصه ، وتميزه في فنٍّ من الفنون ، أو موضوع من الموضوعات .

وبهذا يُشير العلامةُ الندوي إلى صعوبة الكتابة عن الشخصيات ودقتها ، وهذه حقيقة واضحة لمن جرَّب وعانى مشقاتها ، خاصة إذا كانت الشخصية المكتوب عنها ذات جهود كبيرة ، ومآثر جليلة في مجالات متنوعة : نظرية ، وعملية .

أدب التقديمات

يقول فيه العلامةُ الندوي : « إنَّ تقديم كتاب لمؤلف معاصر ، أو عالم كبير ، أو صديق عزيز ، ليس عملاً تقليدياً يقوم به الكاتبُ مجاملة ، أو تحقيقاً لرغبة المؤلف أو الناشر ، أو إرضائه ، إنه شهادة وتزكية ، ولهما أحكامهما ، وآدابهما ، ومسؤوليتهما ، وقد يتحول من شهادة بالحق ، وتقييم الكتاب تقييماً علمياً ، وبيان مكانته فيما كتب ، وألِّف في موضوعه ، ومدى مجهود المؤلف في إخراج هذا الكتاب ونجاحه في عمله التأليفي أو التحقيقي إلى سمسرة تجارية ، أو قصيدة مدح وإطراء من شاعر من شعراء المديح ، فيفقد قيمته العلمية والأدبية ، ويتجرد من الحياة والروح ، وهو زيادة معلومات ، وإلقاء أضواء على موضوع الكتاب ومقاصده ، وعلى حياة المؤلف ومكانته بين العلماء المعاصرين ، في عصره ومصره ، وعلى تكوينه العقلي ، ونشوئه العلمي ، والدوافع التي دفعته إلى التأليف في هذا الموضوع رغم وجود مكتبة واسعة في موضوعه ، أو مجموعة من الكتب التي أُلِّفت في هذا الموضوع ، ولا يكون التقديم مجموع كلمات تقريظ ومدح يمكن أن يحلَّى به جِيدُ أي كتاب إذا غيِّر اسمه واسم مؤلفه .

فلا بدَّ من أن تكون بين المقدِّم للكتاب وبين موضوعه صلةٌ علميةٌ أو ذوقيةٌ أو دراسةٌ وافيةٌ للموضوع وما أُلِّف فيه، وارتباطٌ وثيقٌ كذلك

بينه وبين المؤلف، يمكِّنه من الاطلاع على تركيبه العقلي والعلمي والعاطفي - إذا كان الكتاب في موضوع علمي ، أو أدبي ، أو فكري ، أو دعوي - وعلى مدى إخلاصه لموضوعه ، واختصاصه ، وتفانيه فيه ، ورسوخه في العلم والدين ، وأخذهما من أصحاب الاختصاص فيه المعترف بفضلهم - إذا كان الكتاب في موضوع ديني كالتفسير والحديث والفقه وما إلى ذلك - ويجب أن يكون هذا التقديم عن اندفاع وتجاوب، وتحقيقاً لرغبة نشأت في نفس المقدم بعد قراءة هذا الكتاب ، تحثُّه على كتابة هذا التقديم ، وتحبِّبها إليه ، وتيسرها له ، بحيث إذا امتنع عنها اعتبر نفسه مقصراً في أداء حقٍّ ، وإبداء مشاعر وانطباعات ، وحاجة في نفس يعقوب ما قضاها ، وذلك هو التقديم الطبيعي المنصف الذي له أثره وفائدته »[١] [٢] .

---

(١) نظرات في الأدب : ص(٦٠ - ٦١) .

(٢) قد جمع الأخ سيد أحمد زكريا الغوري الندوي جميعَ مقدِّمات العلاَّمة الندوي في كتابٍ مستقلٍّ ، والذي سيصدر عن دار ابن كثير بدمشق ، في ثلاث مجلدات .

نظراتُه النقدية التطبيقية في الشعر والنثر

إنَّ الكلمة لمن روح القدس ـ كما يقول المفكر الإسلامي الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله ـ فهي حين تدخل إلى سُويداء قلب الإنسان تحوِّله إلى إنسان ذي مبدأ ورسالة . وقد التزم العلاَّمةُ الندوي في حياته الحافلة في مجال الدعوة بقاعدة الجمع بين الإيمان ، والعمل ، والعلم ، وكان ينظر إلى الكلمة الطيبة ـ أو ما كان يسمِّيه بالأدب الحي ـ بوصف الروح الباعثة للحياة في جسم الأمة الإسلامية ، وكانت نظرتُه الحضارية الإسلامية العميقة في فكره وثقافته هي مقياس التقويم لديه في كل شأن من الشؤون التي تهم المسلمين في هذا العصر .

وقد تميَّز العلاَّمةُ الندوي بمواقف نقدية جريئة ، ونظرات جديدة إلى الأدب ، وخالَفَ كثيراً من النُّقَّاد والدارسين الذين اعتادوا ألا ينظروا إلى الأدب إلا من زاوية الصناعة والفن ، ولا يعدونه ـ في غالب الأحوال ـ إلا أداة تسلية ، أو آلة طرب ، أو طريقة إظهار براعة ، أو وسيلة تحقيق مآرب[1] ، فالأدب عند العلاَّمةِ من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة ، والتأثير في

---

(١) الأدب الإسلامي وصلته بالحياة : للأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي ، ص(٩) .

النفس الإنسانية ، والإسهام في بناء الحضارة .

ومِن هذا المفهوم الإيجابي للأدب انطلق العلاَّمة الندوي في الدراسة والبحث عن هذا النوع من الأدب الحيِّ في تاريخنا القديم والحديث ، فعثر على نماذج رائعة في مجال النثر الفني ، كان يمكن أن تكون في المكانة الأولى في دراستنا الأدبية ، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين ، والناقدين ؛ لأنها لم تدخل في رحاب الأدب المصنوع . وإليك عزيزي القارىء ما اختاره لنا ـ رحمه الله ـ في مجالي الشعر ، والنثر .

أ ـ في الشعر

١ ـ وقفةٌ مع مولانا جلال الدين الرُّومي

أمَّا في مجال الشعر فقد قدّم لنا العلامة الندوي نموذجين أثّرا تأثيراً كبيراً في حياته كما يبدو . أمّا النّموذج الأول فهو شعر جلال الدين الرومي (المتوفى سنة ٦٧٢هـ) ، وهو يمثِّل الجانب التراثي ، وأما الثاني فهو شعر محمد إقبال (المتوفى سنة ١٩٣٨م) ، وهو من الشعراء الذين عاصرهم وعرف الكثيرَ عنهم . وقد كان للعلاَّمةِ نظرات نقدية في دراسته لهذين النموذجين كشفت عن ملامح وأهداف إنسانية دقيقة لها قيمة كبيرة في الأدب[١] ، سنقف عند بعضها في هذا العرض ، نقدِّم هنا بعض نماذج شعر جلال الدين الرومي الذي صاغه العلاَّمة في أسلوبه :

أدب الحب والعاطفة واحترام الإنسان والإنسانية في شعر مولانا جلال الدين الرومي :

إنَّ الحبَّ في تساميه نحو المطلق وتوجهه إلى مقر علوي يلوذ

---

(١) مجلة « ثقافة الهند » العدد الممتاز عن العلاَّمة الندوي ، من مقال الدكتور عبد القادر بن عيسى باطاهر ، ص : ٢٤٩ ، (العدد : ٤ ، المجلَّد : ٥٢ ، عام ٢٠٠١م) .

به ، وعالم القلب الّذي لا يسافر فيه إلّا أصحاب القلوب الغنية ، وقيمة الإنسان ، هذه قضية كبيرة في الآداب بعامة وفي الأدب الإسلامي بخاصة . فإنّ الإنسان في الأدب الإسلامي قيمة لا تعلو عليها إلَّا قيمة جلال الخالق عزَّ وجلَّ ، وقد أبدع جلالُ الدين الرومي في عرض هذه القضايا بلغة القلب والعاطفة ، وأبدع العلاَّمةُ الندوي بتقديم هذا الجانب عند جلال الدين الرومي . وفتح لنا فيه باباً في الأدب الإسلامي ما زالت دروبه بكراً ، وما زالت دراساته ميداناً واسعاً للدارسين والباحثين ، ويقدّم لنا العلاَّمةُ نماذجَ لما في ذلك الميدان .

الدعوة إلى الحب :

لقد دعا الشيخُ ـ مولانا جلال الدين الرومي ـ إلى الحب والعاطفة دعوةً سافرة ، وذكر عجائبه وتصرفاته في بسطٍ وتفصيلٍ ، فقال :

« إنَّ الحُبَّ يحول المُرَّ حُلواً ، والتراب تبراً ، والكدر صفاءً ، والألم شفاءً ، والسجن روضةً ، والسَّقَم نعمةً ، والقهر رحمةً ، وهو الذي يليّن الحديد ، ويُذيب الحجر ، ويبعث الميِّت ، وينفخ فيه الحياة ، ويُسوِّد العبد » .

« إنَّ هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان الماديُّ الثقيل في الأجواء ، ويصل من السَّمْك إلى السِّماك ، ومن الثرى إلى الثريا » .

إذا سرى هذا الحبُّ في الجبال الراسيات ؛ ترنَّحت ، ورقصت طرباً :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

ويذكر : أن الحب غنيٌّ أبيٌّ ، لا يحتفل بالملك والسلطان ، من ذاقه مرةً لم يسغ شراباً ، يقول : (إنَّ الحب غني عن العالمين إن كان الشغف بالمحبوب ونفيُ ما سواه جنوناً فهو سيد المجانين » .

إنَّه ملك الملوك ، تخضع له أسرَّة الملوك وتيجانهم ، ويخدمه الملوك كالعبيد ، ويقول : « إنَّ الحب كامنٌ كالنار ، ولكن الحيرة بادية ، ومتواضع ، ولكن نفوس الملوك الذين يملكون النفوس له خاشعة » .

وإذا ذكر الروميُّ هذا الفقر الجسور والحب الغيور ، أخذته نشوة ، ونادى بأعلى صوته : « بارك الله لعبيد المادّة وعُبّاد الجسم في ملكهم وأموالهم ! لا ننازعهم في شيء ، أما نحن ، فأسارى دولة الحب ؛ التي لا تزول ، ولا تحول » .

« إنَّ جميع المرضى يتمنون البرءَ من سقمهم ، إلا أنَّ مرضى الحب يستزيدون المرض ، ويحبون أن يضاعف في ألمهم وحنينهم ، لم أر شراباً أحلى من هذا السم ، ولم أر صحةً أفضل من هذه العلة) .

« إنها علّة ، ولكنها علة تُخلِّص من كل عِلَّةٍ ، فإذا أصيب بها إنسان ؛ لم يصب بمرض قط ، إنها صحة الروح ، بل روح الصحة ، يتمنى أصحاب النعيم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم » ، وكأنَّه يعارض الشاعر العربي في قوله :

ولي كبدٌ مقروحةٌ مَنْ يبيعني ... بها كبداً ليستْ بذاتِ قُروح

أباها عليَّ الناسُ لا يشترونها ومَنْ يشتري ذا عِلَّةٍ بصحيح ؟!

فلو عرف هذا الرجلُ الذي كان ينادي على كبده قيمةَ هذه الكبد المقروحة ؛ لما تنزَّل إلى بيعها ، والتخلي عنها ، ولو عرف الناس قيمتها ؛ لاشتروها بملك الدنيا وعافية الأجسام ، فما قيمةُ كبد لم تقرح ؟ إنها مضغةُ لحم وقطعةُ حجر !.

(إنَّ هذا الحب البريء السامي يصل بالإنسان إلى حيث لا توصله إلَّا الطاعات والمجاهدات ، لم أر طاعةً أفضل من هذا الإثم ـ عند من يسميه إثماً ـ إن الأعوام التي تنقضي بغيره لا تساوي ساعة من ساعات الحب .

إنَّ الدم الذي يسيل في سبيله لا يُشكُّ في طهارته ، إنَّ شهيد الحب لا يحتاج إلى الغسل « إنَّ دماء الشهداء أفضل من الماء الطهور ، ويا لها من خطيئة ؛ إن كانت خطيئة !) .

ويقول : (إنَّ المحبين الذين بذلوا مُهَجَهم ، وأحرقوا قلوبهم ، لا تنفذ عليهم القوانين العامة ، ولا يخضعون للنظم السائدة) .

ويضرب الروميُّ لذلك مثلاً بليغاً ، فيقول : (إنَّ القرية التي خربت لا تفرض عليها الجبايات والضرائب) .

ويقارن بين الحب البريء ، والعقل الشاطر ، فيقول : (إن الحب تراث أبينا آدم ، أما الدهاء فهو بضاعة الشيطان ، إن الداهية الحكيم يعتمد على نفسه وعقله ، أما الحب فتفويض ، وتسليم ، إن العقل سباحة قد يصل بها الإنسان إلى الشاطىء ، وقد يغرق ، وإن الحب سفينة نوح ، لا خوف على رُكّابها من الغرق) .

هذا ، وبحر الحياة هائجٌ ليس السباحة فيه بالخطب اليسير ،

فخيرٌ للإنسان أن يأوي إلى سفينة مأمونة من الغرق ، وهي سفينة الإيمان والحب . يقول : « لقد رأينا كثيراً ممن يحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر اللُّجِّي ، ولكنا ما رأينا سفينة الإيمان والحب تغرق » .

ثم إنَّه يفضِّل حيرة المحبين على حكمة الحكماء الباحثين ، ويحث على الحرص عليها ، والتنافس فيها ، لأن الحكمة ظنٌّ ، وقياسٌ ، والحيرة مشاهدةٌ ، وعرفانٌ .

إنَّه يقول : (ليس لكل أحد أن يكون محبوباً ؛ لأن المحبوب يحتاج إلى صفات وفضائل ، لا يُرزقها كل إنسان ، ولكن لكل أحد أن يأخذ نصيبه في الحب وينعم به . فإذا فاتك أيها القارىء العزيز أن تكون محبوباً ؛ فلا يفتك يا عزيزي أن تكون مُحباً ، إنْ لم يكن من حظِّك أن تكون يوسف ، فمن يمنعك من أن تكون يعقوب ؟ وما الذي يحول بينك وبين أن تكون صادق الحب ، دائم الحنين ؟!) .

ويزيد الشيخُ على ذلك : (إنَّ لذة المحب لا تعدلها صولةٌ المحبوب ، فلو عرف المحبوبون ما ينعم به العشاق المُتيَّمون ، والمحبون المخلصون ؛ لتمنوا مكانهم ، وخرجوا من صفِّ المحبوبين السعداء إلى صفِّ المحبين البؤساء) .

إلى من يوجَّه هذا الحب ؟ :

ولكن إلى من يوجه هذا الحب ، الذي هو نور الحياة وقيمة الإنسان ؟

(إنَّ الحب خالدٌ لا يجدر إلّا بالخالد ، إنه لا يجمل بمن كُتب

له الفناء ، والأفول . إنه حق الحيّ الذي لا يموت ، الذي يفيض الحياة على كل موجود) .

ويستدل الرومي على ذلك بقصة سيدنا إبراهيم ، ويتمثل بقوله : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] .

(إن هذا الحب يجري من صاحبه مجرى الدم ، إن وُضع في محله وصادق أهله ؛ فإنَّه شمس لا ينتابها الأفول ، وزهرة ناضرة لا يعتريها الذبول ، عليك بهذا الحب السُّرمديِّ الذي يبقى ، ويفنى كلُّ شيء ، الذي يدور بكؤوسه التي تروي ظمأك ! عليك بهذا الحب الذي ساد به الأنبياء وحكموا ؟!) .

لا داعي إلى اليأس :

ولكن ليس للمحب الطموح أن يشكو قصوره ، ويحتقر نفسه متعلِّلاً بسمو المحبوب ، وعلو مكانته ، وغناه عن العالمين ، فما للتراب ورب الأرباب ؟!

إنَّ المحبوب الحقيقي هو الذي يجب أن يُحب ، ويجذب إليه من انجذب : ﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] ، يقول مشجّعاً : (لا تقل : لا سبيل إلى ذلك الملك الجليل ، فأنا عبدٌ ذليلٌ ؛ لأن الملك كريم يدعو عبده ، ويسهل له السبيل) .

ويعود فيتغنى بهذا الحب ، ويقرظه في سرور ونشوة ، ويقول :

(إنه فيما يبدو للناظر على علاجها عسيرٌ ، وصاحبها في تعب وعذاب ، ولكنه إذا احتملها وثابر عليها ؛ وصل إلى المعرفة الحقيقية الأبدية .

إنَّ الحب منشؤه انكسار القلب ، وجرح الفؤاد ، إنه علة لا تشبهها علة ، إن علة المحب تختلف عن كل علة ، إن الحب اصطرلابُ الأسرار الإلهية) .

ثم يذكر : أنَّ هذه العلة ، وإن كانت في ذات نفسها علة ، ولكنها شفاء للأسقام النفسانية ، والأمراض الخُلقية .

إن الأمراض التي أعيت الأطباء ، وتعذر منها الشفاء ، وقطع منها المصلحون الرجاء تبرأ وتزول بلفتة من هذا الحب ، فإذا برىء منها السقيم الذي يئس من صحته ؛ هتف في سرور ، وطرب : « حيَّاك الله أيها الحب المضني ! يا طبيب علتي ، وسقمي ! يا دواء نخوتي وكبري ! يا طبيبي النَّطاسي ! يا مداوي الآسي !) .

هذا ؛ لأن الحب شعلةٌ إذا التهبت ؛ أحرقت كلَّ ما سواه ، فلا كبر ، ولا خيلاء ، ولا جبن ، ولا خوف ، ولا حزن ، ولا حسد ، ولا بخل ، ولا عيب من العيوب النفسية ، إن موجة الحب تجرف الحشيش ، وتسري في النفس سريان النار في الهشيم (إن الحب شعلة تحرق كل ما سوى المحبوب) .

(إن التوحيد سيف إذا سلَّه صاحبه ؛ قطع كل ما عدا الله ، فحيّاك الله ، وحياك أيها الحب الذي لا يحتمل الشرك !) .

ويمسك الشيخُ بعد هذا النفس الطويل في مدح الحب ووصفه ، ويقول :

(إن حكاية الحب لا تنتهي ، وتفنى الدنيا ولا تنقضي عجائبه ؛ لأن الدنيا لها نهاية وغاية، الحب وصفُ من لا يفنى، ولا يموت) .

عالم القلب :

ولكن لا سبيل إلى هذا الحب إلا بالقلب الحي الفائض بالحياة والحرارة ، وقد طغت الناحيةُ العقليةُ في عصره كما قدمنا ، وتخطت حدودها ، وتضخَّمت على حساب القلب والعاطفة ، فمهما استنارت العقولُ ؛ فقد بردت القلوب ، وفقدت حياتها وحرارتها ، وأصبحت المعدة قطباً تدور حوله رحى الحياة .

وقد أثار الروميُّ حديث القلب ، وما له من مكانة وكرامة في حياة الإنسان ، وما يحويه من عجائب وكنوز ، وذكر : أن الإنسان يحمل في جسمه روضة ، أُكُلها دائم وربيعها قائم ، وأنه يحمل في نفسه الصغيرة عالماً أوسع من هذا العالم المادّي ، لا يخاف عليه من عدوٍّ ، ولا يطرقه لصٌّ .

(إنَّ القلب بلدٌ عامرٌ مأمونٌ ، وحصنٌ محكمٌ مصونٌ ، وروضةٌ مباركةٌ لا ينفد نعيمها ، ولا ينضب معينها ، تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها) .

وذكر : أنَّ حدائق العالم لا تطول حياتها ، ولا تأمن الآفات والعاهات ، ولكن نخلة القلب دائمة النضارة والثمار (إن الحدائق تبطىء في النماء وتسرع في الفناء ، أما القلب ؛ فسريع النمو ، بطيء الزوال) . (إن روضة الجسم لا تلبث أن تصبح صريماً هشيماً ، فينادي صاحبها : واحسرتاه ! أما روضة العقل ، فلا تزال مخضرَّة مثمرة ، فينادي صاحبها : وافرحتاه !) .

فالذي يحاول أن يحافظ على صحته وشبابه ، ويبقى شاباً قوياً

لا تتحقق أمنيته ، والذي يعتني بقلبه ، ويحسن تربيته ، يبقى شاب الـروح ، نشيـط الجسـم ، قـريـر العيـن ، نـاعـم البـال ، جـذلان مسروراً ، (عليك بالقلب حتى تدوم شاباً ، تتجلَّى في وجهك الأنوار فيشرق) .

(عليك بالقلب حتى تبقى زاخر الحيوية والنضارة مثل الصهباء ، متهلِّلاً كزهرة ناضرة ، ووردة باسمة) .

(ولكن لا تغرَّنك كلمة (القلب) ، فليس هذه القطعة التي تخفق في صدرك ، وتتجمع فيها الشهوات والمطامع ، ليس القلب هو الذي لم يذق طعم الحب ، ولم يعرف معنى اليقين ، ولم يملك شيئاً من الشوق ؛ الذي لا تتفتح زهرته ، ولا يشرق ليله ، فليس هو القلب ، إنما هو قطعة من حجر ، أو خشب .

إنَّه ضيق مظلم مثل قلب اليهود ، لا نصيب له من حب الملك الودود ، إنه لا يشرق ولا ينير ، ولا ينشرح ولا يتسع) .

إنَّه ليس بين هذا القلب الميت وبين القلوب الحية إلّا الاشتراك في اللفظ ، والشَّبه في الجسم ، كما أن الماء الذي يجري في العيون الصافية ، والأنهار الجارية يسمَّى ماءً ، والذي يختلط بالطين والوحل ويرى في المستنقعات يسمى ماءً كذلك ، ولكن الأول يروي الظمأ وينقي الثوب، والثاني تغسل منه اليد . هذا هو الفرق بين القلب والقلب .

إن قلوب الأنبياء والأولياء لتعلو على السماء ، أما قلوب أشباه بني آدم ؛ فهي قلوب أشباه القلوب ، وليست بقلوب ، فإذا قلت : (قلبي) فانظر ماذا تقول ! .

(تقول : قلبي ! قلبي ! فهل تعرف : أنَّ القلب من أمانات السماء ؟ إن الحمأ لا شكَّ يحمل ماءً ، ولكنك لا ترضى أن تغسل به يدك ، لأنه إذا كان ماءً ؛ فهو ماء يغلب عليه الطين والوحل ، فلا تُسمّ ما يخفق في صدرك : القلب ، إن القلب الذي هو أعلى من السمٰوات العلى ، هو قلبُ الأنبياء ، والأصفياء) .

ولكنه يسلِّي قارئه ولا يريد أن يكسر قلبه ، ويثبِّط همته ، فيقول :

(إنَّ سلعتك التي لا يرغب فيها مشترٍ قد اشتراها الكريم تكرُّماً ، وتفضُّلاً ، إنه لا يرفض قلباً من القلوب ، لأنه لا يقصد به الربح) .

ثم ينصح قارئه بالانطلاق من هذا القفص الذهبي الذي يسمَّى (المعدة) والطيران في أجواء القلب الفسيحة ، والاطلاع على عجائب خلق الله ، والتنعُّم بلذة الروح ، يقول : (إنَّ المعدة ، وعبادة المادة هو الحجاب الصفيق بينك وبين ربك ، فإذا رفعتَ هذا الستر ؛ لم يكن بينك وبين ربِّك حجاب ، تخطَّ حدود المعدة ، وتقدَّم إلى قلبك ؛ تأتك تحياتُ الرحمن من غير حجابٍ) .

كرامة الإنسان وشرفه :

لقد تواضعت الحكومات الشخصية المستبدة ، والفلسفات الخاطئة ، والأديان المحرَّفة على الاستهانة بقيمة الإنسان ، والحطِّ من قدره وشرفه .

وقد نشأ ـ بتأثير الحروب الطاحنة التي كانت لا تكاد تنقطع ، وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ـ مقتٌ شديدٌ في الناس

للحياة ، وتبرم من امتدادها واستمرارها ، وقنوطٌ من المستقبل ، وشعورٌ عميقٌ بالمهانة ، أو ما يسمَّى اليوم « بمركّب النقص » وأصبح الإنسان حقيراً في عينه .

وجاء بعضُ المتصوّفين العجم ، فدعوا دعوة متحمِّسة إلى الفناء ، الذي تمثله الجملة المأثورة في الأدب الصوفي : « موتوا قبل أن تموتوا » وغلوا في إنكار الذات ، حتى أصبح الاعتداد بالنفس وحب الذات الذي يتوقف عليه الكفاح ، والحركة ، والنشاط جريمةً خلقيةً ، وحجرَ عثرةٍ في سبيل الكمال الروحي .

وقد أسرف الدعاة والمؤلفون في الحث على اكتساب الصفات الملكية ، والانسلاخ من اللوازم البشرية ، حتى أصبح الإنسان يستنكف من إنسانيته ، وأصبح يعتقد : أن رقيَّه في الثورة على الإنسانية ، لا في الاحتفاظ بإنسانيته ، وأنه كلما كان أبعد من الإنسانية ، وأشبه بالملائكة ؛ كان أقرب إلى السعادة ، والكمال .

ونشأ ـ بتأثير هذه الأفكار والفلسفات ، وانحلال المجتمع ، وجور الحكومات ـ أدبٌ متشائمٌ ، وشعرٌ متشائمٌ ، ينظر إلى العالم وإلى الحياة بالمنظار الأسود ، يدعو إلى الفرار من الحياة ، والتشاؤم من الناس ، والنقمة على الآباء في جنايتهم على ذريتهم ، كما فعل « أبو العلاء المعري » في عصره ، وكانت نتيجة هذه العوامل القوية الطبيعية أن فقد الناسُ عامةً الثقةَ بنفوسهم ، والأملَ في مستقبلهم ، والرغبةَ في حياتهم .

وأصبح الإنسان في هذا المجتمع المتبرِّم الضجر كاسفَ البال ، منكسر الخاطر ، ضعيف الإرادة ، محطَّم الأعصاب ، قد يحسد

الحيوانات في حريتها ، والجمادات في سلامتها ، وهدوئها ، لا يعرف لنفسه قيمةً ، ولا لإنسانيته شرفاً ، ولا يعرف ذلك الجوَّ الفسيح ؛ الذي هيأه الله لطيرانه وتحليقه ، ولا يعرف تلك الكنوز البديعة ، والقُوى الجبارة ، والمواهب العظيمة التي أودعها الله في باطنه ، ولا يعرف : أنَّه قد خُلق ليكون (خليفة رب العالمين في هذا العالم الفسيح) ، و (وصياً عليه) ، وأن الله أخضع له هذا الكون ، وما كان سجود الملائكة لأول بشر إلا إشارة لهذا الخضوع ، فإنهم هم الذين يتصرفون في هذا الكون بأمر الله ، ويبلِّغون رسالاته ، فإذا خضعوا فقد خضع له الكونُ بالأولى .

في هذا المجتمع الثائر على الإنسانية ـ الذي كفر بالإنسان وقيمته ومركزه في هذا العالم ـ قام مولانا جلال الدين الرومي يمثِّل الفكرة الإسلامية الصحيحة في شعره الرنَّان ، ويثير كرامة الإنسان المطمورة في أنقاض الأدب المتشائم ، والشعر المتراجع المنهزم ، وبدأ يتغنى بكرامة الإنسان ، وفضل الإنسانية في حماسةٍ وإيمانٍ وبلاغةٍ ، حتى دبَّ في المجتمع دبيبُ الحياة ، وأصبح الإنسان يعرف شرفه وكرامته ، وترنَّح بهذا الرجز والحداء القوي (الأدب الإسلامي) كله ، وردَّده الشعراء ، وضربوا على وتره ، وانطلقت في عالم التصوف موجةٌ جديدةٌ تستحق أن تسمَّى : (الاعتزاز بالإنسانية) .

يذكِّر جلال الدين الرومي قرَّاءَ شعره ، وتلاميذه : أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد خص الإنسان بأحسن تقويم ، فقد قال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] ، وأنَّ هذا اللباس الفضفاض قد فصِّل على قامة الإنسان ، فلا يطابق كائناً آخر .

ويحثُّ قارئه على دراسة سورة (التّين) والتدبُّر في معانيها ، وأن يحسب لكلمة ﴿ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ حساباً خاصاً ، فإنها ميزة للإنسان لا يشاركه فيها غيره .

ثم يزيد على ذلك ، ويرجع إلى سورة (الإسراء) ويذكِّر بقوله تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، ويقول للقارىء : (هل وجِّه هذا الخطاب الكريم وهذا الأسلوب من التكريم إلى السمٰوات والأرض أو الجبال ؟ إنه لم يوجَّه إلّا إلى هذا الإنسان الذي يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته ، إن الله قد توَّجك ـ أيها الغافل ـ بتاج الكرامة ، وخصَّك بقوله : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا ﴾ ، وحلّى جيدك بالمنحة الخالصة ، فقال : ﴿ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾ [الكوثر : ١] كلمة لم يقلها لأحد) .

إنَّه يقول : إن الإنسان خلاصة هذا الكون ، ومجموع أوصاف العالم . (يتمثل في هذا الجسم الصغير ما شئتَ في العالم من خيرات وكنوز ، وبدائع وعجائب ، إنه ذرةٌ حقيرةٌ انعكست فيها الشمس ، فإذا طلعت لم يبدُ كوكب ، إنه قطرةٌ صغيرةٌ انصبَّ فيها بحر العلم ، وثلاثة أذرع من الجسم انطوى فيها العالم) .

يقول : (إنَّ الإنسان غاية هذا الخلق ؛ لأجله خلق العالم ، وهو القطب الذي يدور حوله رحى الكون تحسده الكائناتُ ، وقد فرض الله طاعته على جميع الموجودات . إن كل ما في هذا العالم من جمال وكمال إنما خُلق لأجلك ويطوف حولك ، أنت الذي يحسده المقرَّبون ، لستَ في حاجة إلى جمال مستعار ؛ فأنت جمال الدنيا ، وواسطة العقد ، وبيت القصيد ، الإنسان جوهرٌ ، والفلك

عرضٌ ، كل ما عداك فرعٌ وظلٌّ ، أنت الغرض ، إنَّ خدمتك مفروضةٌ على جميع الكائنات ، إنَّ عاراً على الجوهر أن يخضع لعرض) .

ولا يقتصر الردَّ على ذلك ، بل يقول : (إن الإنسان مظهرٌ لصفات الله ، وهو المرآة الصادقة التي تجلّت فيها آياته) ، ويقول : (إن الذي يتراءى في الإنسان ـ من الكمالات والمحاسن ـ عكسٌ لصفات الله ، كعكس القمر المنير في الغدير الصافي ، إن الخلق كالماء النمير ، تتجلى فيه صفات الله ، وينعكس فيه علمه ، وعدله ، ولطفه ، كما ينعكس ضوء الكوكب الدري في الماء الجاري) .

ولكنَّه يشعر بقصوره وعجزه في وصف الإنسان ، وضخامة المهمة ودقَّتها ، ويعلن بصراحة وشجاعة :

(إذا صرَّحتُ بقيمةِ هذا المُمْتَنِع[1] ؛ احترقتُ واحترقَ المُسْتَمِعُ) .

ثم يتساءل : هل يجرؤ أحدٌ أن يساوم هذا الإنسان الغالي ، ويمنِّي نفسه بشرائه ؟ هل يجوز لهذا الإنسان أن يبيع نفسه ـ مهما تضخَّم ثمنها ـ ؟ .

ثم يندفع مخاطباً الإنسان ، ويقول في تلهُّفٍ وتوجُّعٍ ، وفي شيء من العتاب والأنفة : (يا من من عبيدِه العقلُ والحكمةُ والمقدرةُ ، كيف تبيع نفسك رخيصة ؟) .

ثم يقول : لا محلَّ للمساومة ، فقد تمَّت الصفقةُ ، وتحقَّق

---

(١) يعني به الإنسان .

البيعُ : (إنَّ الله اشترانا وخلَّصنا من المساومات والمقاولات إلى آخر الأبد ، فالشيءُ لا يباع مرَّتين) .

ثم يحثُّ الإنسان على أن يعرف قيمتَه ، ولا يرضى إلا بأكرم المشترين ، ويقول : (ابحثْ لك ـ إنْ كنتَ باحثاً ـ عن مشترٍ يطلبك ، ويبحث عنك ، والذي منه بدايتك ، وإليه نهايتك) .

ويلاحظ الشاعرُ : أن من بني آدم من لا يستحق هذا الوصف (أشباه الرجال ولا رجال) ، الذين هم فريسة نفوسهم ، وقتلى شهواتهم ، لا يعرفون من الإنسانية إلّا ما يفوق فيه الحيوان من الشبع ، والري ، والشبق .

ويقول بكلِّ صراحةٍ : (إنَّ هؤلاء ليسوا رجالًا ، إنما هم صُور الرجال ، هؤلاء الذين يحكم عليهم الخبز ، وقتلت الشهواتُ فيهم الإنسانية) .

وقد ندر وجودُ الإنسان الحقيقي في عصره ، كما ندر في عصر غيره ، حتى أصبح في حكم عنقاء المغرب ، والكبريت الأحمر ، وحتى اضطرَّ الباحثون أن يبحثوا عنه بمصباح (ديوجينوس) ، وقد حكى الروميُّ حكاية لطيفة في هذا الموضوع في ديوان شعره ، فقال :

(رأيتُ البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلاً ، كأنه يبحث عن شيء ! فقلتُ : يا سيدي ! تبحث عن ماذا ؟

قال : قد مللتُ معاشرة السباع والدواب ، وضقتُ بها ذرعاً ، وخرجتُ أبحث عن إنسان عملاق ، وأسد مغوار ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى ، والأقزام الذين أجدهم حولي .

فقلتُ له : إنَّ الذي تبحث عنه ليس يسيرَ المنال ، وقد بحثتُ عنه طويلاً ، فلم أجده .

فقال : إنني مغرمٌ بالبحث عمَّن لا يوجد بسهولة ، ولا يُعثر عليه في الطرقات)[1] .

فهذه كانت بعضُ نماذج من شعر مولانا جلال الدين الرُّومي ، اختارها العلاَّمة الندوي من مثنويَّته وعرضها في أسلوبٍ جميلٍ ، تترجم نظرته الإيجابية إلى الإنسان ، والذي يرى فيه خلاصة هذا الكون ، ومجموع أوصاف العالم ، وهو غاية هذا الخلق ، لأجله خُلق العالمُ ، وهو القطب الذي تدور حوله رَحى الكون ، تجسيده الكائنات ، وقد فرض الله طاعته على جميع الموجودات ، ودعاه إلى الاعتراف بقيمتِه ، والاعتزاز بوجوده ، وألا يبيع نفسَه رخيصةً إلَّا لأكرم المشترين ، وهو الله تعالت قدرتُه .

إنَّ الأثر الإيجابي لهذه الأفكار في حياة الإنسان المؤمن بالله تمتَدُّ إلى آفاق عريضة ، فشعوره أولاً بذاته وقيمة نفسه ، ثم الاعتزاز بالانتساب إلى الله ، والارتباط بكل ما في الوجود يجعله يحيا عزيزَ النفس ، عالي الرأس ، أبيّاً للضَّيم ، عصيّاً على الذُّلِّ ، والهوان ، بعيداً عن الشعور بالتفاهة ، والعَدَم ، والفراغ ، يشعره بأثره ، ورسالته في الحياة ، وأنه يملك شيئاً ذا قيمةٍ يمكن أن يقدِّمه للآخرين .

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام : للعلاَّمة الندوي (١/ ٤٠٥ ـ ٤١٦) .

٢ـ وقفة مع محمّد إقبال

كان شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال من أعظم رجال الفكر والدعوة والأدب في هذا العصر ، فقد جمع في شخصيته بين الفكر الثاقب ، والعلم الواسع ، والقلب الواعي ، والعقيدة القوية الصادقة ، والرؤية الحضارية العميقة[١] .

وقد لا يُوجد شاعر معاصر أثَّر تأثيراً كبيراً في العلاَّمةِ الندوي كما أثَّر إقبال ، بل إن العلامة نفسه يرى : أنه ما من شاعر أو أديب أو كاتب في شبه القارة الهندية إلا وقد تأثر به في قليل أو كثير ، وليس لأحد أن يدعي أنه قد تحرر من هذا الأثر ، حتى الذين كان اتجاههم غير اتجاهه أو عكس اتجاهه تماماً ، فكلُّهم قد خضعوا له من حيث يشعرون ، ومن حيث لا يشعرون[٢] .

وكان العلامة قد أعجب به ، وأحبَّه كثيراً ، وكان من دواعي إعجابه حب الدكتور وعشقه وصلته الوثيقة المتينة بتراث الرسول الكريم ﷺ . وديوانه : (أرمغان حجاز) (هدية الحجاز) ديوان شعر يشهد على هذا الحبِّ العظيم ، وكذلك كان من حبّه لفكر الدكتور محمد إقبال ، وأفكاره ، وتغنِّيه بالإسلام ، ورسالته : أنَّ العلامة الندوي كان يستشهد بأقواله وأشعاره في معظم مؤلفاته ،

---

(١) إقبال الشاعر الثائر : للأستاذ نجيب الكيلاني ، ص(٢١ ـ ٢٢) .
(٢) نظرات في الأدب : للعلامة الندوي، ص (١٠٨) .

ويستلهم فيما يكتب من فكره وروحه ، وحبِّه للإسلام ، والدعوة القوية المجلجلة إلى التمسُّك بالإسلام ، وبالإسلام وحده ، ليس غير[1] .

يجدر بي أن أنقل كلمةً كتبها العلاَّمةُ ـ وإنْ كانت تكرَّرت في هذا الكتاب أكثر من مرَّةٍ سابقاً ـ يقول فيها : « إنَّ أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو : الطموح ، والحبُّ ، والإيمان ، وقد تجلَّى هذا المزيج الجميل في شعره ، وفي رسالته أعظم ممَّا تجلَّى في شعر معاصر ، ورأيت نفسي قد طبعت على الطموح والحبِّ والإيمان ، وهي تندفع اندفاعاً قوياً إلى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح وسموَّ النفس ، وبُعْد النظر والحرص على سيادة الإسلام وتسخير هذا الكون لصالحه ، والسيطرة على النفس والآفاق ، ويغذِّيان الحبَّ والعاطفة ، ويبعثان الإيمان بالله ، والإيمان بنبوَّة محمد ﷺ ، وبعبقرية سيرته ، وخلود رسالته ، وعموم إمامته للأجيال البشرية كلها »[2] .

وكان يـرى العلاَّمةُ : أنه ما نال شاعر أوربي في اللغات الحية مثل اللغة الإنجليزية ، والألمانية ، والفرنسية ، والفارسية ، والعربية مثل هذا الاهتمـام سـواء في سيرته ، أو شاعريته ، أو مـدرستـه الفكـريـة كمـا نـال إقبـال ، لا شكسبيـر (Shakespeare) ولا ميلتون (Milton) ، والسبب في ذلك راجع إلى قوَّة شخصيته

---

(١) أبو الحسن علي الحسني الندوي الداعية الحكيم المربِّي الجليل : للدكتور محمد اجتباء الندوي ، ص(١٥٠) .

(٢) روائع إقبال : للعلامة الندوي ، ص(١٢ ـ ١٣) .

أولًا ، وقوة العقيدة ثانياً ، وقوة العاطفة ثالثاً[١] .

ويحلِّل العلاَّمةُ الندوي هذه العناصر التي منحت القوة ، والجاذبية ، والجمال لأدب إقبال ، فيرى : أنها في قوة العقيدة عنده ، وهي إيمانه العميق بصلاحية الإسلام للخلود ، وأنَّه هو الرسالة الخاتمة المختارة التي تملك إنقاذ الإنسان من براثن الجاهلية ، وعبادة الإنسان ، وعبادة الشهوات ، والأوثان ، ثم في إعجابه القوي بشخصية الرسول ﷺ الفلسفية الواسعة العميقة من التعبير الوجداني المتدفِّق عن حبه ومبادئه ، وآماله .

● نظرة إقبال إلى الشعر والأدب :

كان إقبال يعتقد : أن الأدب لا يصل إلى حدِّ الإعجاز حتى يستمد حياته وقوَّته من أعماق القلب ، فغاية الأدب أن يبعث في الذات القوَّة ، ويثير فيها الجرأة ، والعشق ، والنزوع إلى عالم الروح ، ويفيض على المجتمع الحياةَ ، والحماسَ ، وقد قال : « لا خير في نشيد شاعر ، ولا في صوت مغن إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة ، والحماس . ولا خير في أدب ، ولا شعر إذا تجرَّدا عن تأثير عصا موسى »[٢] .

وكان إقبال ينفر بطبعه من الأدب والفن ؛ الذي تكون غايته الأولى المتعةُ ، والتسليةُ ، وقتلُ الوقت ، يقول[٣] :

---

(١) نظرات في الأدب : ص(١٠٨) .
(٢) روائع إقبال : ص(٦٩) .
(٣) إقبال الشاعر الثائر : ص(٧٩) .

الدِّينُ والفنُّ والتدبيرُ والخطبُ والشعرُ والنثرُ والتحريرُ والكتبُ
إنْ تحفظ (الذات) هذي فالحياةُ بها أو لم تُطِقْ ذاك فهي السحرُ والكذبُ

وكان يعتقد اعتقاداً جازماً : أنَّ الفنَّ وسيلة لفهم حقائق الحياة ، وهو رسالة عظيمة في الحياة . يقول[1] :

الشعرُ فيه مِن الحياة رسالةٌ أبـديـةٌ لا تقبـل التبـديـلا
إنْ كان مِن جبريل فيه نغمةٌ أو كـان فيـه نفـخ إسـرافيـلا

وكان يرى العلامةُ الندوي : أن نظرة إقبال هذه إلى الشعر والأدب كانت في الحقيقة ثورةً في تاريخ الأدب وفي تاريخ الشعر ، وذلك بما أحدثه من تأثير عميق في الأدب الحديث ، وبما قام به من تأثير في بلورة مدرسة جديدة في الشعر ، والأدب في شبه القارة الهندية[2] .

● الرؤية الحضارية في شعره :

كان إقبال ـ كما ذكر سابقاً ـ يؤمن إيماناً عميقاً بصلاحية الإسلام للخلود ، وبقدرته على حلِّ مشكلات الإنسانية ، وقد انعكست هذه الرؤيةُ الواضحةُ في شعره ، يقول[3] :

كـم أصـابَ الإنسـانُ فـي هـذه الأرض مِن إسكندر ومِن جَنْكِيْز
ويقول التاريخُ في كلِّ عصرٍ خطـرٌ فـرطٌ قـوَّة لعـزيـز
وهي سَمٌّ بغير دين ، وبالدِّين دواءٌ لكـلِّ سَـمٍّ نجيـز

(١) إقبال الشاعر الثائر : ص(٨٣) .
(٢) نظرات في الأدب : ص(١٠٦) .
(٣) إقبال الشاعر الثائر : ص(١٢٨) .

وعن هذه الرؤية الواضحة يقول العلاَّمةُ الندوي : « إنَّ محمد إقبال له فضلٌ كبيرٌ في أنه استخدم شاعريته الموهوبة السليقية لصالح الإنسانية ، واستخدمها لصالح الإسلام . إنه كان يستطيع أن يتصدَّر دَسْتَ الأدباء والشعراء فيسلمون له الزعامة والرئاسة ، وقد نال ذلك كثيرٌ من إخوانه المعاصرين ، ولكنه أبى إلا أن يستخدم كلَّ شاعريته ، وكل مواهبه الشعرية والأدبية لخدمة الإسلام والإنسانية ، فأعاد بذلك الإيمان ، والثقة بالإسلام ، والحب للرسول ﷺ »[1] .

وكان إقبالُ يعتقد : أن البعث الإسلامي القادم سيكون على أيدي المسلمين المؤمنين بمبادئهم وقِيَمِهم ، العاملين في ميادين الحضارة ، والعلم ، والكفاح بهمة ، وعزم ، ونشاط .

ولقد كان إقبال ـ كما يرى العلاَّمةُ الندوي ـ النموذجَ الطيب لقيادة حركة البعث الإسلامي بشعره الإسلامي البليغ ، ورؤيته الحضارية الواضحة ، وهو النموذج الذي لا بدَّ أن يرزق العالم العربي بمثله للقيام بدور القيادة ، والثورة في عالم الأدب ، والشعر .

---

(١) نظرات في الأدب : ص(١١٢) .



ب ـ في النثر

تجلَّى الإبداعُ النقديُّ عند العلامة الندوي في اكتشافه لصفحات مشرقة رائعة من النثر في الإبداع العربي ، هذه الصفحات التي غفل عنها النقادُ ودارسو الأدب لقصور نظرتهم ، وضيق فهمهم ، وذلك بعنايتهم بالأدب الصناعي المنمق الموجود في دواوين الشعراء ، وكتب الرسائل ، والمقامات ، وغيرها من أنواع الأدب الذي يتخذ في الغالب صناعة وحرفة .

وقد استعرض العلامةُ مكتبةَ الأدب العربي من جديد ، فلاحظ : أنَّ هناك نوعاً من الأدب النثري الطبعي الجميل لم يحظ بدراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم مثل ما حظي به الأدب الصناعي ، مع أنه يملك خصائص كثيرة ، منها : الكثرة ، وفضل السبق ، وعبقرية اللغة العربية ، وأسرارها ، والبُعد عن الصناعة والتكلف[1] . ويتجسَّد هذا الأدب على وجه الخصوص في كتب الحديث ، والسيرة ، وفي بعض الكتب العلمية ، والدينية ، وفي كتب الطبقات ، والتراجم ، والرحلات .

وكان يرى العلامةُ : أن هذا الأدب ثورة أدبية زاخرة تكاد تكون

---

(١) نظرات في الأدب : ص(١١٢) .

ضائعة[1] ، وذلك بما يمتاز به هذا الأدب من خصائص فكرية وجمالية تفتق القريحة ، وتنشِّط الذهن ، وتقوِّي الذوق السليم ، وتعلِّم الكتابة الحقيقية .

والسِّرُّ في فضل هذه الكتابات العلمية والدينية وقوَّتها وجمالها ليس في التحرر من الصناعة والتكلف فحسب ، بل في كونها كُتبت عن التزام وإيمان بالعقيدة ، وعن عاطفة متدفِّقة بالحماس والعزم . لقد كان هؤلاء الكتَّاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرةٌ أو عقيدةٌ يكتبون لأنفسهم لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين ، فتشتعل مواهبهم ، وتفيض خواطرهم ، وتتحرَّق قلوبهم ، فتنهال عليهم المعاني وتطاوعهم الألفاظُ ، وتؤثِّر كتاباتهم في نفوس قرائها ؛ لأنها خرجت من القلب ، فلا تستقر إلا في القلب[2] .

فقام العلامة الندوي بإخراج هذه النصوص المختارة من بطون المصادر الأدبية القديمة والحديثة ، واختار قطعاً أدبية بديعة ، وعبارات رائعة من الكتب والمؤلَّفات التي كان الكتَّاب والأدباء لا يلتفتون إليها ظنّاً منهم بأنها من أقلام المفكِّرين ، والمفسِّرين ، والمحدِّثين ، والدعاة ، والمصلحين ، وهم لا يعدُّون من الأدباء ، ولا يعتبرون من هذه الطبقة الأدبية الممتازة ، التي تحصر الشعر والأدب في عصبتها وفرقتها وطائفتها ؛ ولو كان أولئك أبلغ وأفصح وأكثر تأثيراً وروعة وجمالاً وسحراً بكتاباتهم وكلماتهم وأحاديثهم[3] ! .

---

(١) نظرات في الأدب : ص(٣٤) .
(٢) نظرات في الأدب : ص(٣٢) .
(٣) أبو الحسن علي الحسني الندوي الداعية الحكيم ، المربي الجليل : ص(١٤٦ - ١٤٧) .

وجاءت مختاراته هذه بعنوان « مختارات من أدب العرب » في مجلَّدين ، وعُدَّ الكتابُ من أجود الكتب المختارة ، والنصوص الأدبية المنتخبة للمقرَّرات الدراسية في العصر الحاضر .

وقد أشار إلى هذا الكتاب أديب العربية الكبير الأستاذ علي الطنطاوي ، رحمه الله ، فقال :

« ولقد كنتُ أتمنَّى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه إلى فضاء الحرية ، وإلى ضياء النهار ، فلا نقتصر في الاختيار ، على (وصف الكتاب) للجاحظ ، وهو جمل مترادفة لا تؤلِّف بينها فكرة جامعة، ولا يمدُّها روح ، ولا تخالطها حياة ، وعلى ألاعيب ابن العميد ، وغلاظات الصاحب ، وهندسات القاضي الفاضل ، فننفِّر التلاميذ من الأدب ، ونكرِّهه إليهم !!

وكنا نقول لهم : إنَّ البيان الحق عند غير هؤلاء ، وإنَّ أبا حيَّان التوحيدي أكتب من الجاحظ ، وإن كان الجاحظ أوسع رواية ، وأكثر علماً ، وأشد تصرفاً في فنون القول، وأكبر أستاذية ، وإنَّ الحسن البصري أبلغ منهما ، وإنَّ ابن السماك أبلغ من الحسن البصري ، وإنَّ النظر فيما كتب الغزالي في « الإحياء » ، وابن خلدون في « المقدِّمة » ، وابن الجوزي في « الصيد » ، وابن هشام في « السيرة » ، بل والشافعي في « الأم » ، والسَّرَخْسِي في « المبسوط » أجدى على التلميذ ، وأنفع له في التأدُّب من قراءة حماقات الصاحب ، ومخرقات الحريري ، وابن الأثير .

وكتبتُ في ذلك مراراً ، فما التفت إلى ذلك أحد ، فيئست

منه ، حتى وجدت كتاب أبي الحسن ، فإذا هو قد نفض كتب الأدب ، والتاريخ نفضاً ، وحرثها حرثاً ، فاستخرج جواهرها ، فأودعها كتابه »[1] .

فقدَّم العلاَّمة الندوي أدلة تطبيقية كثيرة على رأيه في كتابه : « مختارات من أدب العرب » وغيره في كتب أخرى ، وذكر نصوصاً من كتب الحديث ، والسيرة ، والتاريخ ، والمعاجم ، ثم يقف منها وقفات نقدية دقيقة ؛ ليكشف عن أسرار الجمال ، والإبداع فيها في ميزان الرؤية الإسلامية في الأدب والفن[2] [3] .

وقد قام العلاَّمةُ بمراجعات نقدية رائعة لأدب التراجم ، والتقديمات ، وأدب الرحلات ـ كما مرَّ معنا في الصفحات السابقة ـ ، أضافت الكثير من العناصر التأصيلية إلى النقد الإسلامي ، الذي يسعى إلى بلورة نظرية متكاملة في النقد ، تقف في وجه النظريات الغربية الوافدة .

* * *

---

(١) المسلمون في الهند : للعلامة الندوي ، مقدمة الشيخ الطنطاوي ، ص(١٧ ـ ١٨) .

(٢) انظر هذه النصوص ، ووقفاته النقدية الدقيقة في هذا الكتاب ، بعنوان « نظرة جديدة إلى تراث الأدب العربي » ص(٥٧) .

(٣) مجلة « ثقافة الهند » (العدد الممتاز عن العلامة الندوي) من مقال الأستاذ عبد القادر بن عيسى باطاهر ، ص(٢٥٦ ـ ٢٥٧) .

القسم الثاني :

عنايةُ العلاَّمة الندوي
بأدب الأطفال والناشئين

لقد قدَّم العلامة أبو الحسن الندوي للطفل المسلم تراثاً تاريخياً عظيماً خالداً أعاد بريقه ، ولمَّع جوانبه ، تحدَّث فيه عن أمجاد أمَّتنا الإسلامية ، وسموّ أخلاقها بأسلوب الداعية الصادق ؛ الذي تتدفَّق منه كلمات الدعوة ملتهبةً ، تحمل صدق العاطفة وسموّ الروح ، والذي كان لسانه رطباً بالدعوة إلى الله ، وعزيمته صلبة متمسكة بعُرى الإيمان الوثقى .

التفت العلاَّمةُ الندوي إلى العناية بالطفولة ، والكتابة للأطفال والناشئين بوصفهم رجال الغد وصنَّاع تاريخ الأمم والملل ، وهو في عنفوان شبابه ، وكتب مجموعة من قصص النبيين للأطفال بلغتهم ، في أسلوب سلس فريد ، وطريقة شائقة مضمناً إياها ما يُحَبُّ من المعاني والقيم ، ومن الدروس والعبر ، ومن العقائد والمثل ، حتى قال أحد كبار علماء الهند[1] : إنها (علم توحيد) جديد للأطفال ،

---

(١) وهو الشيخ عبد الماجد الدَّرْيَابَادِي ، كان من كبار علماء الهند وأدبائها العمالقة في الأردوية والإنكليزية ، صاحب مؤلفات كثيرة في اللغتين (الأردوية والإنجليزية) ، توفي سنة ١٣٩٧هـ .

وأثنى عليها أديبٌ كبيرٌ كسيِّد قطب ـ مارس هذا العملَ ـ أيضاً في تقديمه لـ (قصص النبيين) بهذه الألفاظ :

« لقد قرأتُ الكثير من كتب الأطفال ـ بما في ذلك قصص الأنبياء ، عليهم الصلوات والسلام ـ وشاركتُ في تاليف مجموعة : « القصص الديني للأطفال » في مصر ، مأخوذاً كذلك من القرآن الكريم ، ولكني أشهد في غير مجاملة : أنَّ عمل السيد أبي الحسن في هذه القصص التي بين يدي جاء أكمل من هذا كله ، وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة ، وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة ، وحوادثها ، ومواقفها ، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة ، ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر ، حين تستقرّ في قلوب الصغار أو الكبار .

جزى الله السيد أبا الحسن خيراً ، وزاده توفيقاً ، وهدى به الأجيال الناشئة التي تحيط بها العواصفُ والأعاصيرُ ، وتنتشر في طريقها الأشواك ، وتدلهمُّ من حولها الظلمات ، وتحتاج إلى الهدى ، والنور ، والرعاية ، والإخلاص في حياطتها ، ورعايتها ، ومن الله التوفيق »(١) .

ثمَّ وفَّق الله العلامةَ الندوي لاختيار حكايات في عهد شبابه وأول عهده بتعليم الأطفال اللغة العربية في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، فاختار من حكايات الصحابة قصصاً صاغها في لغة سهلة ، وطريقة شائقة تكوَّن منها كتاب (قصص من التاريخ الإسلامي) للأطفال .

كَتَبَ العلاَّمةُ بحثاً قيّماً عن أهمية أدب الأطفال ، والحاجة إليها

---

(١) قصص النبيين : (انظر مقدمته) .

في مقدّمة هذا الكتاب ، والتي تجدر بالنقل هنا برمتها ، يقول ـ رحمه الله ـ :

« فقد اتفق علماءُ التربية ، وعلماء النفس على أنّ الحكايات الخفيفة الشائقة ، الموجَّهة الهادفة من أقوى وسائل التربية ، والصياغة الخلقية ، والمبدئية ، والدينية ، والإيمانية ؛ إذا كانتْ متّصلةً بأقطاب الإيمان ، واليقين ، والديانات ، والرسالات .

وإذا كانت هذه القصصُ والحكاياتُ على مستوى عقول الأحداث والأطفال ، وفي اللغة التي يفهمونها بسهولةٍ ، ويسيغونها ويتذوّقونها ؛ كانت مدرسةً للأطفال يتعلَّمون فيها المبادىء والأخلاق الفاضلة ، والدوافع النبيلةَ ، والمشاعر الكريمة الرقيقة ، مِنْ غير أن تثقل عليهم ، ومن غير سآمةٍ ومَلَلٍ .

ولا أبلغ ولا أصدق من قول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ . . . ﴾ [يوسف : ١١١] .

ويقول مخاطباً لنبيّه صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٦] .

ويقول في مفتتح سورة يوسف : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

لذلك عُنيت أكثرُ اللغات والآداب ، والديانات ، والبيئات ، والمعنيون بتربية الأطفال ، وإنشاء الجيل الجديد بالأخلاق الفاضلة ، وخلال المروءة ، والفتوّة ، والإيثار ، والتضحية ، والرّجولة ، والبطولة بجمع حكايات شائقة مُثيرة تلائم سنَّ الأطفال ،

وعقليتهم ، ومدى قدرتهم على الوعي والتذوق ، حتى تكوَّنت من ذلك مكتبةٌ زاخرةٌ في كلّ لغة حيّة راقية ، وفي كل بيئة عاقلة واعية ، تعنى بتربية الأطفال ، وإنشاء الناشئة ، والجيل الجديد على حبّ أهدافها ومُثُلها ، وقِيَمها الَّتي تحتاج إليها ، وتغار عليها ، قلَّما تستثنى من ذلك لغةٌ من لغات العالم المتمدِّن ، وشعبٌ من الشعوب العاقلة المثقَّفة .

والناشئة الإسلامية ، والأطفال المسلمون أحوج من كلِّ ناشئة وجيل في سنّ الحداثة إلى قصص وحكايات تغرسُ فيهم حبَّ الخير والفضيلة ، والبطولة والتضحية ، والجهاد والشهادة في سبيل الله ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، والعزوف على سفاسف الأمور وفضول الحياة ، والحبّ لله وللرسول ، ولأصحابه وأتباعه ، والذين بذلوا نفسَهم ونفيسَهم في سبيل الله ، وحموا الدين ودافعوا عن المسلمين ، لأنّ سعادة الدنيا ، وفلاح البشر يتوقّف على نشوئهم النشأة الصالحة ، وتضلُّعهم بروح الدعوة إلى الله ، والكفاح في سبيل الله ، والتحلِّي بالحياة المثالية النموذجية .

والتاريخُ الإسلاميُّ من أغنى الثروات التاريخية والمكتبات العالمية في روائع إيمانية وخُلقية ومُثُل إنسانية رفيعة ، باعثة على الهمم العالية ، والاتجاهات والمطامح الخيرة النبيلة ، وكُتب التاريخ الموثوق بها مليئةٌ طافحةٌ بمثل هذه الحكايات والقصص ، والمُثُل والنماذج ، ولكن الأقلام المسلمة ، والمؤسَّسات التربوية ، ودور النشر في العالم الإسلامي ـ نقول هذا مع أسفٍ واعتذارٍ ـ لم تُعطِ هذا الجانبَ المهمَّ ، حقَّه من العناية والجمع والتأليف ، فلا

يزال أطفال المسلمين ومَن كان في سنّ حداثةٍ ، يعيشون في قلَّةٍ ونُدرةٍ ـ إذا لم نَقلْ في فقرٍ وعَوَزٍ ـ من هذا الصنف من الكتب الصغيرة التي تستجمع هذه الحكايات والملتقطات من كتب التاريخ الضخمة ، وتكوِّن مكتبةً للأطفال المسلمين ، تسهُلُ الاستفادة منها ، وتقوى الرغبةُ فيها ، ويدومُ أثرُها في نفوس الأطفال والنشء الحديث »[١] .

---

(١) قصص من التاريخ الإسلامي : للعلامة الندوي ، ص(٥ ـ ٩) .



أهداف العلامة الندوي
في كتبه للأطفال والنَّاشئين

يحسن أن نتحدَّثَ في هذا القسم عن أهداف العلامة الندوي فيما كتبه للطفل المسلم ، وفكره الأدبي ، والذي يحتوي على ستة مباحث ، وهي : اللغة ، والدعوة ، والتربية الإسلامية ، والثقافة الإسلامية ، والتي تُبرز عدَّة نواحٍ في الفكر ، واللغة ، والتربية ، وتهمُّ أدب الطفل وذلك من خلال دراسة الباحث المتأنية لكتب العلاّمة الندوي ، ونتناول هنا كلاً من هذه الأهداف بشيءٍ من التفصيل في ضوء مؤلفاته ، وكتبه ، فمنها أوّلًا :

١ ـ اللُّغة :

يظهر اهتمامُ العلامة الندوي في اللغة من خلال الأمور التالية :

١ ـ الدعوة إلى الاهتمام باللغة العربية عند الطفل المسلم : هذا واضحٌ في كل قصصه وحكاياته عن التاريخ الإسلامي تراهُ في جمله المتينة ، وألفاظه السهلة ، ومعانيه العذبة بما يتناسب وروح النص في سياق حديثه عن أي موضوع ؛ أمَّا الألفاظ فسهلة تراها بعيدةً كل البُعد عن الألفاظ الغريبة ، وأما المعاني فعذبة ، لأنها خصبةٌ بالروح الإسلامية ، وأما الجمل فمتينة وترابطها يدل على متانتها ، حتى تكاد أن تكون قصصه موسوعةَ طفلٍ غنيةً بمفردات اللغة العربية

كمفردات : (وفدٍ) و (دعوة) و (رؤيا) و(عناد) .

وهي سِمةٌ أصيلة في منهج العلامة الندوي .

٢ ـ **البُعد عن الخيال الوهمي في أدبه مع الطفل** : ولا شكَّ في هذا ؛ لأنه يروي تاريخاً ، لا سيما أن التاريخ الإسلامي هو حقائق ثابتة سجَّلها القرآن الكريم والسنة النبوية ، ودوّنتها انتصارات المسلمين الرائعة على مرِّ الأيام ، فقصص الأنبياء كقصة إبراهيم ، وموسى ، ومحمد ، عليهم الصلاة والسلام ، هي حقائق ثابتة ذكرها القرآن ، لا يمحوها زيف زائف ، أو عبث عابث ، فالأدب الذي يكتبه العلاَّمةُ الندوي للطفل هو الأدب المسلم ؛ إذ يتَّسم بالحقيقة ، والثبات ، وهذه سمةٌ بارزةٌ في أدب العلامة الندوي .

٣ ـ **استخدامُ الأساليب اللغوية في الأدب مع الطفل** : فتراه يستخدم صيغ الاستفهام أسلوباً عندما يرغب في البرهنة على صحة كلامه أو عند تقرير أمرٍ ما ، وهذا الأسلوب يفيد عدةَ معانٍ ؛ منها الاستنكار ، كقوله : « وقال للأصنام : ألا تتكلمون ؟ ألا تسمعون ؟ »(١) .

ومنها التقرير ، كقوله : « ألا يستحق أهلُ السجن الرحمة ؟ أليس أهلُ السجن عباد الله ؟ »(٢) .

ـ كما أنه يستخدم أسلوبَ الحوار حينما تكون الأحداث بحاجة ماسَّة إلى هذا الأسلوب ، فالحوار يضفي على النص روحاً وحماسة

(١) قصص النبيين : ص(١٢) .
(٢) المرجع السابق : ص(٤٣) .

تستنشط همة القارىء ، وتدفعه إلى إتمام القراءة ، وتبيِّن طريقه للتعامل مع الناس في الكلام والمناقشة ، والحوار أسلوب هام في الدعوة ، وهذا ما أكده العلاَّمةُ الندوي ، نذكر منها : موقف سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ من المَلِك .

والأسلوب التكراري للجمل ، والمفردات هو أيضاً من الأساليب التي استخدمها العلامةُ في أدب الأطفال ، فالتكرار يثبت في ذهن القارىء ، المعاني التي يريدها ويبين أهميتها ، فيوفي الفكرة حقها ، ويشبع جوانبها ، وخير مثال على ذلك ما يلي :

« وكان آزر له ولدٌ رشيدٌ ، رشيد جداً ، وكان اسم هذا الولد إبراهيم ، وكان إبراهيم يرى الناسَ يسجدون للأصنام ، ويرى الناسَ يعبدون الأصنام ، وكان إبراهيم يعرف : أن الأصنام حجارة »[1] .

٤ ـ **التركيزُ على الحدث الماضي** : لجأ العلاَّمة الندوي إلى الماضي ، وقدَّم قصصه بأسلوب عصري يتناسب مع الطفل المسلم ، ويبدأ العلاَّمةُ كل قصة من قصصه بالفعل الماضي ، ومن الأمثلة على ذلك :

« كان يوسف ولداً صغيراً ، وكان له أحدَ عشرَ أخاً »[2] .

« وجاء على عرش مصر ملك جبار جداً »[3] .

فالأطفال عادةً يحبون سماع قصص الماضي ؛ لأنهم يجدون بها ذوقاً رفيعاً ، وحلاوةً عجيبةً ؛ لأن الحديث عن الوقائع في الزمان

(١) قصص النبيين : ص(١٠).
(٢) المرجع السابق : ص(٣٠) .
(٣) المرجع السابق : ص(١٤٣) .

الماضي أسهل من الحديث عن الوقائع في الزمن الحاضر ؛ لأن هناك صعوباتٌ تحول دون الحديث عن الوقائع الحاضرة .

٢ ـ الدعوة :

كان يعتبر العلامةُ الندوي الدَّعوةَ عنده هدفاً رئيساً من أهداف أدب الأطفال ، ويبدو هذا من خلال استعراضه الفعلي لآداب وأساليب وأسرار الدعوة ، فيحسُّ الطفلُ وهو يقرأ بأن الأفكار والمعاني أحياءٌ تتحرَّك على الأرض ، ويكشف العلامةُ للطفل المسلم عن آداب الدعوة الإسلامية التي يحتاجها الداعيةُ في كل زمان ومكان وعصر ومصر ، ويظهر ذلك من خلال فهمه الرائع لمفردات القرآن ومعانيه ، وآياته المتناسقة ، فيؤكِّد : أن هذه الآداب هي سلعة الدعوة التي يهبها للنَّاس على اختلاف عقائدهم وتصوّراتهم عن الحياة ، وهذه الآداب التي يكشف عنها تتبيَّن من خلال النماذج العظيمة من دعوة الأنبياء الصالحين التي وردت في القرآن العظيم ، أو من خلال النماذج الكريمة من دعوة الصحابة ، والتابعين ، والفاتحين من أبطال المسلمين ، التي سطرتها صفحاتُ تاريخنا الإسلامي المجيد .

تتكشَّفُ آداب الدعوة عند العلامة الندوي من خلال النماذج الباهرة من دعوة الأنبياء ، والصالحين ؛ التي وردت في القرآن الكريم ، نذكر منها :

أ ـ نموذج من دعوة إبراهيم عليه السلام :

يقول الله تعالى : « ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ ﴾ [مريم : ٤٢] ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ ﴾ [مريم : ٤٤] إنَّ كلمة « يا أبت » فيها

إثارة للحنان الأبوي[1] ، وهذا أدبٌ عظيمٌ مع الوالدين يعرضه العلاَّمةُ للأطفال ، فدعوة الوالدين تحتاج إلى إثارة العاطفة ، والشفقة ، والرأفة .

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ ﴾ [مريم : ٤٤] وغضب والدُ إبراهيم ، وقال : أنا أضربك ، فاتركني ، ولا تقل شيئاً ، وكان إبراهيم حليماً » .

ب ـ نموذج من دعوة سيدنا يوسف عليه السلام :

يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٧ ـ ٣٩] .

هذه الآياتُ تعرض نموذجاً من دعوة يوسف عليه السلام ، قام العلاَّمةُ الندوي بتجزئتها ، والتعليق عليها ؛ حيث أكّد : أن الحكمة هي مفتاح الدعوة ، ومن الحكمة في الدعوة حسن افتتاح الحديث[2] فيطمئن سيدنا يوسف صاحبيه في السجن ؛ ليمهّد بعد ذلك الجو المناسب للدعوة، فيقول لهما : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ ﴾ فجلسا ، واطمأنّا ، ثم قال لهما يوسف : (أنا عالمٌ بتأويل الرؤيا ، ذلك مما علمني ربي) ففرحا، واطمأنا، وهنا وجد يوسف الفرصةَ ، فبدأ موعظته » .

---

(١) روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة : للعلامة الندوي ، ص(٢٠) .
(٢) روائع من أدب الدعوة : ص(٣٨) .

ثم يشرح لهما دعوته بعد أن اطمأنَّ منهما وهيّأا قلوبهما :

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] أين ربُّ البر ، وربُّ البحر ، وربُّ الرزق ، وربُّ المطر ؟ »[١] .

وكذلك لو قدّم هذا قبل ذلك الكلام ، لكان ثقيلاً على آذانهما وعلى قلوبهما[٢] . وهناك شَعَرَ سيدنا يوسف بأن الفراغ الذي وجد في قلوبهم قد ملىء ، وليس من الحكمة الآن أن يطيل الكلام ، ويتوسَّع في الحديث عن التوحيد ، والطبيب النطاسي يعرف مقدار الوجبة من الدواء ، ومدى صلاحية المريض وحاجته ، فلا يزيد عليها ، إنها طريقة الداعي الملهم »[٣] .

« ولمَّا فرغ يوسف من موعظته أخبرهما بتأويل الرؤيا »[٤] .

ج ـ نموذج من دعوة سيدنا محمد ﷺ :

يعرض العلاَّمةُ الندوي هذا النموذج في باب خاص تحت عنوان : « الدعوة جهاراً على جبل الصفا » ، فيوضح للطفل : أن النداء أسلوب من أساليب الحماسة في الدعوة ، يستثير همم الرجال ، ويستقطب أنظارهم ، وعقولهم ، ومثال ذلك ما أورده العلامةُ الندوي قائلاً : « فخرج ﷺ وصعد على جبل « الصفا » ونادى بأعلى صوته : « يا صباحاه ! » وكانت صيحة معروفة مألوفة كلما أحس إنسانٌ بخطر عدو ، يُغير على بلد ، أو على قبيلة على

---

(١) قصص النبيين : ص (٤٤ ـ ٤٥) .
(٢) روائع من أدب الدعوة : ص(٤٣) .
(٣) المرجع السابق : ص(٤٤ ـ ٤٥) .
(٤) قصص النبيين : ص(٤٧) .

غفلة منها ؛ نادى « يا صباحاه ! » فلم تتأخر قريش في تلبية هذا النداء »[1] . كما يوضِّح للطفل : أن الصدق أساس الدعوة ، وأن الرجل الصادق هو الرجل الداعية ، يقول العلامةُ الندوي : « كان العرب واقعيِّين عمليِّين ، إنهم رأوا رجلاً جرَّبوا عليه الصدق ، والأمانة ، والنصيحة ، فهداهم ذكاؤهم ، وإنصافهم إلى تصديق هذا المُخبر الأمين الصادق »[2] .

إلى جانب ذلك يوضِّح العلامةُ الندوي للطفل المسلم : أنَّ الداعية سيجد المعارضة ، والمقاومة حتى من أقرب الناس إليه ؛ لأن دعوة الحق ثقيلةٌ على النفوس ، تعني الاستعلاء على كل ضغوط شهوات الحياة الدنيا ، وقد أكده النَّدوي بقوله : فسكت الناس ، ولكن أبا لهب قال : « تبّاً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلَّا لهذا ؟! »[3] .

وتتكشَّف نماذجُ الدعوة إلى الله في كُتب العلامة الندوي من خلال النماذج الذكية من دعوة الصحابة والتابعين والفاتحين المُسلمين التي سجَّلها تاريخنا الإسلامي ، نذكر منها بعضاً من تلك النماذج مقتبساً من كُتب العلامة :

أ ـ نموذج من دعوة جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة :

هذا النموذجُ لوحةٌ رائعةٌ بالغةٌ روعتها في دقة الوصف ، وحسن الجمال ، فالعلاَّمةُ الندوي يكتب كلامَ جعفر بن أبي طالب

---

(١) سيرة خاتم النبيين : للعلامة الندوي ، ص (٥٢ ـ ٥٣) .
(٢) المرجع السابق : ص (٥٣ ـ ٥٤) .
(٣) المرجع السابق : ص(٥٤) .

بالكامل ، ويضع لكلام جعفر أمام النجاشي عنواناً رائعاً يطلق عليه اسم : « تصوير جعفر بن أبي طالب للجاهلية ، وتعريفه بالإسلام » .

ثم يبيِّن مسعى الكافرين بقوله : « خيبة وفد قريش » فالعلامةُ الندوي في هذا النموذج يبيِّن كيفية الدعوة في بلاط الملوك والسلاطين قائلاً : « يقول أصحاب السِّير ، سمع النجاشي كل ذلك في هدوء ووقار ، ولعلَّ ما أبداه جعفر من الثقة بعدله ، وحُسن جواره كان عوناً على ذلك ، والملوك العقلاء يحرصون دائماً على حسن الصِّيت ، وطيب القالة ، وتحقيق حسن الظنِّ بهم »[1] .

ولعلَّ مقصد العلامةِ الندوي من إيراد هذا الخطاب كاملاً هو بيان ظلم الجاهلية ، ونظافة الإسلام ، وتقرير ذلك في نفس الطفل ، وقلبه ، وعقله ، وكأن لسان حال العلاَّمةِ يقول : تعالوا انظروا ! هذا ظلم الجاهلية ، وهذه عدالة الإسلام ، وطهارته .

كما يبيِّن العلاَّمة الندوي للطفل من هو عيسى ابن مريم الذي يؤلِّهه النصارى ، ويعبدونه ؟! يوضِّح ذلك من خلال كلام جعفر للنجاشي هو عبد الله ، ورسوله ، وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . ولا شكَّ : أن هذا تمرينٌ للطفل المسلم ، صاحب العقيدة الصلبة ، والنبع الصافي ، يعلم فيه الطفل على كيفية الرد على النصرانية عقيدة الصليب ، والشرك ، والكفر ، والطغيان .

ب ـ نموذج من جواب كان السبب في إسلام مئات الألوف من

---

(١) روائع من أدب الدعوة : ص(١٠٩) .

الناس : هذه القصة تروي حكايةً لحوارٍ لطيفٍ بين الملك التتري تَغْلَقْ تَيْمُور ، وبين الشيخ جمال الدين الفارسي ، تمخَّض عن الحوار بينهما اقتناع الأمير بالإسلام ، وقد أسلم على يد هذا الملك ـ بعد تسليمه الحكم ـ الأمراءُ كلهم ، ودخل التتار المتوحِّشون في الإسلام ، واعتنقوه ، وأصبحوا قادة فتح إسلامي بعد أن كانوا دماراً للإسلام والمسلمين !! ويبيِّن العلامةُ في هذه القصة أسلوب الداعية الشيخ الفارسي في الحوار الذي كان سببَ إسلام الملك التتري[1] .

فاستعراض العلامة الندوي للنماذج الحيَّة من دعوة الأنبياء ، والصالحين هي دعوةٌ للأطفال المسلمين أن يصبحوا دعاة إلى الله في الأرض ، ففي هذه النماذج من تلك الدعوات تهيىء للمرحلة الإعدادية للطفل كداعية ؛ إذ تؤسِّس فيه عمل الدعوة ، وتحرِّك فيه دوافعها ، فالنماذج التي تحدَّث عنها الباحث من دعوة سيدنا إبراهيم ، ويوسف ، ومحمد ، عليهم الصلاة والسلام ، وجعفر بن أبي طالب هي لوحاتٌ رائعةٌ للأطفال في حقل الدعوة ، ودعوةٌ فريدةٌ لأطفالنا المسلمين في الالتحاق بقافلة الدعاة إلى الله ، وكأنها صيحاتٌ تهمس في آذان أطفالنا أن يتمثلوا هذا النهجَ العظيم من الدعوة إلى الله ، ويسلكوا طريق الدعوة ويرفعوا رايةَ التوحيد عالياً : « لا إله إلا الله » .

٣ ـ التربية الإسلامية :

قدَّم العلامة الندوي في مستهلِّ كتابه الذائع الصيت : « قصص

---

(١) قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال : للعلامة الندوي ، ص(٨٠ ـ ٨٥) .

النبييــن » نصيحــةً لابــن أخيــه « محمــد الحسنــي »[1] ـ مملــوءةً بالحرص ، والوعي لمستقبله من جهة ، وبالندم ، والخجل من القصص العربية من جهة أخرى ـ بدراسة قصص الأنبياء ، وتعلُّم اللغة العربية ، قدَّم العلامة هذه النصيحة التربوية التي تحمل في ثناياها كلَّ الأسف ، والخجل من القصص العربية ؛ التي لا تتكلَّم إلَّا عن الحيوانات ، والأساطير ، والخرافات ، فيقول :

« ابن أخي العزيز ! أراكَ حريصاً على القصص ، والحكايات ، ولكنــي أتــأسَّــف لأنــي لا أرى فــي يــدك إلا حكــايــات السنــانيــر ، والكلاب ، والأسد ، والذئاب ، والقِرَدة ، والذباب ، ولكني أخجل أنك لا تجد ما يوافق سِنَّك من القصص العربية ، إلا قصص الحيوانات ، والأساطير والخرافات ، فرأيتُ أن أكتب لك ، ولأمثالك أبناء المسلمين قصصَ الأنبياء والمرسلين ـ عليهم صلاة الله وسلامه ـ بأسلوب يناسب سنَّك ، وذوقك ، ففعلتُ »[2] .

ومع هذه النصيحة يقدّم العلامةُ كتابه « قصص النبيين » هديةً له ، ولأطفال المسلمين الناشئين الذين هم رجال الغد ، وصنَّاع تاريخ الأمم ، هذه المقدمة على الرغم من قصرها إلّا أنها على جانبٍ عظيمٍ من التربية والتعليم لأطفال المسلمين ، يُوازيها شرف الداعية ، والمربِّي الحريص على مستقبل الطفل المسلم وغده المجهول ، إضافةً إلى ذلك فإن كتاب قصص النبيين القسم الثالث : « سيرة خاتم

---

(١) هو الكاتب الإسلامي المرموق ، والصحافي البارع : الأستاذ محمد الحسني ، منشىء مجلة « البعث الإسلامي » الصادرة عن ندوة العلماء في لكنؤ (الهند) ، توفي سنة ١٣٩٩هـ .

(٢) قصص النبيين : ص(٦) .

النبيين » جاء ليجذر أصول التربية الإسلامية ، ويعمِّق قواعدها ، وقد أكَّد العلامة الندوي نفسه هذا المعنى في مقدمته لهذا الكتاب قائلاً :

« وقد جاءت فيه خلاصةُ السيرة ولبابها ، وروائع حكاياتها وأخبارها ، وتاريخ الدعوة الإسلامية الأولى وفتوحها وانتصاراتها ، وعجائب التربية النبوية ومعجزاتها ، فأصبح الكتابُ مدرسة كاملة ينشأ فيها الطالب بين إيمان وحنان ، ويتقلب بين رَوْحٍ وريحان »[1] .

نذكر هنا الأهداف التربوية التي يؤكِّد عليها العلامة الندوي في كتبه التي ألَّفها للناشئين ، فمنها :

١ ـ التدرُّج في الأسلوب التربوي للناشئة حسب ما تقتضيه درجتهم العقلية ، وأكد العلاَّمةُ هذا الهدف قائلاً : « ولم أتقيد في هذا الكتاب بالالتزامات التي التزمتها في الأجزاء الأولى من « قصص النبيين للأطفال » من محاكاة أسلوب الأطفال وطبيعتهم ، وتكرار الجمل ، وسهولة الألفاظ ، وبسط القصة ، فقد شبّ هؤلاء القرّاء الصغار عن طوقهم ، وقد تقدَّموا في ثقافتهم اللغوية ودرجتهم العقلية ، . . . ، وهكذا جاء الكتابُ ـ بحول الله تعالى ـ وسطاً بين الكتب التي أُلِّفت في السيرة للكبار البالغين ، والكتب التي ألفت للصغار الناهضين . . . »[2] .

وهنا لا بدَّ أن يشير الباحث إلى أن المربي الفاضل العلاَّمة

---

(١) سيرة خاتم النبيين : ص(٥) .
(٢) المرجع السابق : ص(٥) .

الندوي كان بعيداً تمام البعد عن تناول الأحكام الشرعية الفقهية ؛ لأنها ليست موضوعاً للبحث في هذا المستوى من الناشئة .

٢ ـ غرس مكارم الأخلاق الإسلامية في كيان الطفل ، ودعوته إلى التمسك بها . هذه الغراس يقطف الطفل منها ثمار العقيدة الصحيحة المعافاة من العقد والأمراض ، فالدين الإسلامي دينُ أخلاقٍ . يقول الرسول الكريم ﷺ : « إنما بُعِثْتُ لأتمِّم مكارمَ الأخلاق »[١] . فهو الدين الوحيد الذي ينظِّم أخلاقاً للحكم ، والخلافة ، والحروب حتى (دخول الحمام ، وإماطة الأذى عن الطريق) ، ينظِّم لها أخلاقاً ، وسلوكاً ينبع من النهج الرباني والتصور الإسلامي للحياة والكون ، فمعظم قصص العلاَّمة الندوي تركز على الأخلاق ؛ حتى إنَّ كتابه « قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال » يحكي في كل قصة خُلقاً إسلامياً عظيماً ، حتى يستطيع الباحث لو طلب منه ذلك أن يضع له عنواناً يطلق عليه اسماً جديداً هو « صور مجيدة من الأخلاق الإسلامية في التاريخ الإسلامي للأطفال » ؛ لأن الأخلاق أمجاد تاريخ عابق بالنفس الطيبة والروح الزكية .

وقد أعربَ العلامة الندوي عن هذه المعاني السامية في الأخلاق الكريمة ، نذكر هنا بعضَ الشواهد على ذلك :

أ ـ الصبر : يظهر هذا الخلق من خلال قصة صبر أيوب ، عليه السلام .

« فقد كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير ، وأولاد

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٠/ ١٩١) برقم (٢٠٥٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وغيره أخرجه بلفظ « صالح الأخلاق » .

مرضيين ، فابتلي في ذلك ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلي في جسده لم يبقَ منه سليمٌ سوى قلبه ولسانه ، يذكر بهما الله عزَّ وجلَّ . . . ، وكان رغم ذلك صابراً شاكراً »[1] .

ب ـ **التفاني في حب الرسول ﷺ** : وله مظاهر كثيرة ، منها فداء الصحابة الكرام لرسول الله في غزوة أُحد ؛ كأبي عبيدة ، وطلحة ، وأبي دجانة ، وسعد :

(نزع أبو عبيدة بن الجرَّاح إحدى الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ فسقطت ثنيته ، ونزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى . . .

وترَّس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ يقع النبل في ظهره ؛ وهو منحن عليه . . .

ورمى سعد أبي وقاص دون رسول الله ، ويناوله رسول الله ﷺ النبل ، ويقول : « ارم فداك أبي وأمي . . . »

وجالدهم طلحة بن عبيد الله وتَرّس بيده يقي بها رسولَ الله ﷺ فأصيبت أنامله ، وشلَّت يده)[2] .

ج ـ **العزة بالإيمان** : ويظهر هذا في رحلة سيدنا عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس (وقال له رئيسُ القوم (المسيحيين) : أنت ملك العرب ، وهذه بلادٌ لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئاً غير هذا ، وركبت برذوناً ؛ لكان ذلك أعظم في أعين الروم ، فقال : نحن قوم أعزَّنا الله بالإسلام ، فلا نطلب بغير الله بديلاً)[3] .

---

(١) قصص النبيين : ص (٣٢٣ ـ ٣٢٤) .

(٢) سيرة خاتم النبيين : ص(١٦٣ ـ ١٦٤) .

(٣) قصص من التاريخ الإسلامي : ص(٦٥ ـ ٦٦) .

د ـ **الرحمة** : ويتجلَّى هذا في فتح مكة : ثم قال رسول الله ﷺ : « يا معشر قريش! ما ترون أني فاعلٌ بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم !! قال : «فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : لا تثريبَ عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء !! »[1] .

٣ ـ الحثُّ على حبّ العلم وتعلّمه ودعوة الطفل إلى طلبه : فالدين الإسلامي مؤسَّسةٌ علميةٌ ، فأول ما نزل من القرآن آيات تحثُّ على طلب العلم ، قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] والعلامة الندوي أَحَسَّ كعالمٍ وداعية إسلامي لا بدَّ له من أن يؤكِّد على هذا المطلب ، ويظهر ذلك من خلال كتبه ، ومن الشواهد الدالة على ذلك :

أ ـ قصةُ سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ مع الخضر ، حيث أفرد لها العلاَّمةُ عنواناً خاصاً بها ؛ هو « في سبيل العلم » ، هذا العنوان يحمل في طيّاته أدباً للعلم والتعلم ، ألا وهو : أن العلم لله ، وأن الله هو العليم ، ويجب أن يُرد العلم إليه . عن النبي ﷺ : أنه قال : « قام موسى خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل : أيّ الناس أعلم ؟ فقال : أنا أعلم ! فعتب الله عليه ؛ إذ لم يرد العلم إلى الله ، فأوحى الله إليه : أنَّ عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك »[2] .

ب ـ ومن الشواهد أيضاً على دعوة العلامة الندوي طفلنا المسلم إلى طلب العلم هو ما أكَّده تحت عنوان : (تعليم غلمان المسلمين فداء الأسرى) قائلاً : « وكان من الأسرى من لم يكن لهم فداء ،

---

(١) سيرة خاتم النبيين : ص(٢٧٥) .
(٢) قصص النبيين : ص(٢٧٤ ـ ٢٧٥) .

فجعل رسولُ الله ﷺ فداءهم أن يعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة ، فيعلِّم كلٌّ واحد عشرةَ من المسلمين الكتابة ، وكان زيد بن ثابت ممَّن تعلَّم بهذا الطريق »[1] .

٤ ـ تحرير عقل الطفل وقلبه من الأساطير والخرافات ، وضغوط شهوات الحياة الدنيا وهذا التحرير لعقل الطفل هو تحرير من الجاهلية وكل تبعاتها ، وهذا الهدف يظهر من خلال الشواهد التالية التي أكَّد عليها العلاَّمة في قصصه ويبدو منها ما يلي :

أ ـ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار : « وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، وكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين » . فالمؤاخاة مِن أعظم الأحداث التي سجَّلها التاريخ البشري على وجه الأرض منذ آدم حتى الآن ، وستبقى خالدة إلى يوم القيامة .

ب ـ تطهير الحرم من الأوثان والأصنام : « وَحَوْلَ البيتِ وَعَلَيْهِ ثلاثمئة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس ويقول : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ورأى في الكعبة الصور والتماثيل فكُسرت »[2] .

ج ـ زهد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي في الدنيا وشهواتها :

« يقول ابن شدَّاد : إنَّ السلطان لم يخلف في خزانته من الذهب

---

(١) سيرة خاتم النبيين : ص(١٥١ ـ ١٥٢) .
(٢) سيرة خاتم النبيين : ص(١٢٥) .

والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، وجرماً واحداً ذهباً ، ولم يخلف ملكاً ، ولا داراً ، ولا عقاراً ، ولا بستاناً ، ولا مزرعة ، ولا شيئاً من أنواع الأملاك »[١] .

٥ ـ تنمية الروح الجهادية والنفس المطمئنة للطفل المسلم :

ففي كل قصص العلاَّمة الندوي عن الأنبياء وحكاياته عن التاريخ الإسلامي ، دعوة إلى الجهاد وحب الاستشهاد وترغيب الطفل في الشهادة في سبيل الله ، لأن الجهاد في سبيل الله هو المخزون الفعلي للطاقة الإسلامية من أشبال الإسلام الذين هم حرّاس العقيدة وحماة الديار ، فالشهادة في سبيل الله هي أمنية الأحرار المؤمنين الذين يشترون جنةً عرضها السموات والأرض ، ويقدِّمون أرواحهم الطاهرة ثمناً لها ، ففي الجهاد تعبئة روحية ونفسية لطفلنا المسلم أعظم من البحار ، وأثبت من الجبال . فالشهادة محرِّكة للطاقات ، شاحذة لهمم الرجال ؛ لأنهم بعقيدتهم الراسخة في قلوبهم يعتبرونها الجسر الذي يمرون عليه ؛ ليصلوا إلى برِّ الأمان ، يتنقلون عليها من الحياة الدنيا ليصلوا إلى وطنهم الخالد جنة الأتقياء والأنقياء المخلصين[٢] . وقد أكَّد هذا المعنى السامي العلاَّمةُ الندوي تأكيداً واضحاً ومميزاً في معظم قصصه وحكاياته ، والأدلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها :

أ ـ تنافس الغلمان في الجهاد والشهادة في غزوة بدر :

هذه لوحةٌ جميلةٌ تصوِّر التربيةَ الحلوةَ والطفولةَ الرفيعةَ بتسابق

---

(١) قصص من التاريخ الإسلامي : ص(٧٩) .
(٢) قصص من التاريخ الإسلامي : ص(٧٩) .

الأطفال وتنافسهم على الموت . نعم لقد غرس فيهم الإسلامُ مبدأً عظيماً ، ذلك هو الشهادة التي هي تذكرة لدخول الجنة ، وثمن لها ، هؤلاء الأطفال يُعلنون الحاكمية لله في الأرض ، تتوهَّج قلوبهم بعقيدة التوحيد ، هذه الصورة فيها دعوة واضحة إلى أطفالنا اليوم إلى حب الموت في سبيل الله ، ففي غزوة بدر خرج غلامٌ صغيرٌ في السادسة عشرة من عمره اسمه عمير بن أبي وقَّاص ، أخو الصحابي الجليل سعد ، وتوارى عن أنظار الرسول ﷺ خوفاً من أن يراه فيردَّه ، فلما رآه رسول الله ﷺ أراد أن يرده ؛ لأنه لم يبلغ مبلغَ الرجال ، فبكى عمير ، ورقَّ له قلب رسول الله ﷺ فأجازه ، واستشهد في هذه الغزوة[١] .

ب ـ مسابقة بين أتراب في غزوة أُحد :

« وعُرِض على رسول الله سَمُرَةُ بن جُنْدُب وهو في سن رافع بن خَدِيْج ، وردّه رسول الله ﷺ لصغره ، فقال سمرة : لقد أجزتَ رافعاً ، ورددتني ، ولو صارعتُه لصرعته ، ووقعت المصارعةُ بينهما ، فصرع سمرة رافعاً فأجيز ، وخرج ، وقاتل يومَ أحد »[٢] .

ج ـ فـداء علي بن أبي طالب للرسول ﷺ عندما نام في فراشه ليلة هجرته ﷺ ، فكان عليٌّ أول فدائي في الإسلام : « وأخبر اللهُ رسولَه ﷺ بهذه المؤامرة ، فأمر عليَّ بن أبي طالب أن ينام في فراشه متسجِّياً ببردته »[٣] .

---

(١) سيرة خاتم النبيين : ص(١٣٨ ـ ١٣٩) .
(٢) المرجع السابق : ص(١٥٧) .
(٣) المرجع السابق : ص (١٠٩ ـ ١١٠) .

٤ ـ الثقافة الإسلامية :

قام العلامة الندوي بترسيخ بعض خصائص الثقافة الإسلامية في عقول الناشئين ، وذلك كالتالي :

١ ـ **الوعي الإسلامي** : هذا الوعي يمنع التبعية الثقافية للثقافة الغربية ، فالثقافة التي يعرضها العلاَّمةُ الندوي للأطفال هي ثقافة إسلامية بعيدة كل البعد عن شبهات المستشرقين ، فيركِّز على التاريخ الإسلامي ؛ لأنه ثقافةٌ واعيةٌ تفتح عيون الطفل وعقله على واقعنا المعاصر ، كما أن تاريخنا الإسلامي الذي ركَّز عليه العلاَّمةُ يضع الطفل على أول درجات الفهم للحياة ، وما تدور عليه من صراع بين الحق وأنصاره ، وبين الباطل وأعوانه ، فالتاريخ جذر لعلم السياسة ، وهو تغذيةٌ جيدة ورضاعةٌ كاملة لطفلنا المسلم تحتوي على كافة العناصر اللازمة لبناء الشخصية الإسلامية المثقفة ؛ لأنَّ قرآننا الكريم وسنَّتنا الطاهرة مصدرٌ غنيٌّ لتاريخنا الإسلامي ومناخه الذي يعطيه الحرارة ، والدفء ، والاتزان .

٢ ـ **النظرة الشمولية والتفسير الإسلامي للتاريخ** : البعد الثاقب للعلاَّمة الندوي ، والنظرة البعيدة له جعلته يكتب في التاريخ الإسلامي لأطفالنا المسلمين ، فالتاريخ الإسلامي هو التاريخ الممتد منذ خَلَق الله آدم ـ عليه السلام ـ وحتى وقتنا الحالي ، ويستمر إلى يوم القيامة ؛ لأن الإسلام دين الأنبياء كلهم ، لأنهم جميعاً جاؤوا بدعوة واحدة ؛ هي دعوة التوحيد ، ودعوة الإسلام ، والاستسلام ، والانقياد لله تعالى .

يؤكِّد العلامة الندوي هذه النظرة الشمولية للتاريخ الإسلامي ،

فيستعرض تاريخَ الأنبياء ، ثم يستعرض بشيء من التفصيل الممتع تاريخ سيرة محمد ﷺ ، ثم يحكي قصصاً مضيئةً من تاريخ المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، هذه القصص تتناثر من هنا وهناك ، من زمن إلى زمن آخر . إذاً لا بدَّ من القول : إن العلاَّمة الندوي قد وضع تفسيراً إسلامياً للتاريخ ، فتاريخ آدم ، وموسى ، وإبراهيم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هو تاريخنا نحن المسلمين .

٣ ـ ربانية المصدر والغاية : فالمصدر الرئيسي للثقافة الإسلامية هو القرآن الكريم ، وهذا واضح من خلال استخدام العلاَّمة الندوي للآيات الكريمة بشكلٍ واسعٍ وعريضٍ ، كما أن غاية الثقافة الإسلامية هو حبُّ الله تعالى ورضوانه ، وتعميق ، معنى العبودية في العقول والقلوب المسلمة ، فالثقافة الإسلامية ربانية لا يعتريها النقص والعيب ، بعكس الثقافة الغربية التي تتخللها الأمراضُ والعيوب كنتيجة حتمية ؛ لأنها من وضع العقل البشري .

٤ ـ الإنسانية : وقد أكَّد العلاَّمةُ الندوي هذه الخاصية ، فحتى تكون الثقافة إنسانيةً يجب أن تكون الثقافة شاملةً كاملةً للحياة ، وهذه الميّزة لا نجدها إلا في ثقافتنا الإسلامية ، نعم لقد صنع الإسلام الإنسان ، ولم يصنعه أي نظام آخر وأي قوّةٍ على الأرض ؛ لأن الإسلام لا يصطدم أبداً مع الفطرة ؛ إذ يلبي رغباتها وحاجاتها ، وهذا ما أكَّده العلاَّمةُ الندوي في معرض حديثه عن التتار قبل الإسلام وبعد الإسلام ، في قصته : « جوابٌ كان السببَ في إسلام مئات ألوف من الناس »[١] .

---

(١) قصص من التاريخ الإسلامي : ص(٨٠) .

٥ ـ **الثبات** : قرَّر العلاَّمة الندوي : أن هناك حقائق ثابتة لا تتغير يجب أن يتبناها فكر الطفل المسلم ؛ هي حقيقة العبودية لله وحده ثابتة لا تتغير . وحقيقة : أن الناس من أصلٍ واحد متفاضلون بالتقوى . وحقيقة : أن الدنيا دار امتحان . كلها حقائق ثابتة لا تتغير ، فهذه الثوابت تكوِّن العقل المسلم للطفل ، ومع ذلك فهي روافدُ فكرية تغذي ثقافته الإسلامية ، وأساسياتٌ لتحديث العقل المسلم للطفل في كل زمان ، وفي كل مكان ، تمنعه من الانحراف عن المسار الصحيح للإسلام .

ويؤكِّد العلاَّمةُ الندوي الثبات كميزة أساسية لثقافة الطفل المسلم ، فالإسلام دين توحيد ووحدة : وفتح رسول الله ﷺ باب الكعبة ، فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته ، فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظُّمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب »[1] [2] .

فكانت هذه بعضُ ركائز وأهداف العلامة الندوي فيما كتبه للأطفال المسلمين . وأدب الأطفال عنده هو أدبٌ إسلاميٌ بعكس الكثير من الّذين ألَّفوا في هذا الأدب ؛ لأنَّه يحمل بين جوانبه الهمَّ الإسلامي ، ويتكلَّم بحرارة العاطفة ، ويكتب تاريخ الإسلام

---

(١) أخرجه الترمذي بمعناه في أبواب تفسير القرآن ، سورة الحجرات ، برقم (٣٢٧٠) عن ابن عمر ، رضي الله عنهما .

(٢) من بحث الأستاذ نصر عبد الله سلامة العتوم بتصرُّفٍ واختصارٍ ، والذي قدَّمه في حفلة تكريم العلاَّمة الندوي في إستانبول عام ١٩٩٦م .

بأسلوب التربية والدعوة الصادقة ، وقد شهد لهذا الكاتبُ الإسلاميُّ الكبير الشهيد سيد قطب ، وأديب العربية الكبير العلاَّمة الشيخ علي الطنطاوي ، والداعية الفقيه الدكتور يوسف القرضاوي ، وأمثالهم كثيرون .

* * *



كلمة الختام

فكانت هذه محاولة سريعة في الحديث عن جهود العلاَّمة أبي الحسن الندوي ـ رحمه الله تعالى ـ في خدمة الأدب الإسلامي ، والتي قام بها عملياً وإبداعياً . أمَّا العمليُّ فهو بإنشاء رابطةٍ للأدب الإسلامي ، وفروعها في العالم الإسلامي والعربي ، وأمَّا الإبداعي فهو بكتابة البحوث القيمة والمقالات النفيسة ، وتأليف الكتب النافعة .

وكان أحرى بأن يكون موضوع هذا الكتاب دراسة الباحثين والمهتمين بالأدب الإسلامي ، أو يكون رسالةً جامعيةً معمَّقةً ، أو كتاباً منهجياً كبيراً ، لكني أردتُ في هذا الكتاب المتواضع استرعاء انتباه الباحثين والدارسين إلى هذا الموضوع المهم ، ومن حقِّ العلاَّمة الندوي على جميع دعاة الأدب الإسلامي ودارسيه أن يعكفوا على هذا الموضوع ومراحل تطوُّره ، فهو ـ رحمه الله تعالى ـ بعطاءاته الواسعة والمتميّزة قسمٌ من هذا التاريخ ، ومرحلةٌ عظيمة التطوُّر ، كثيرة التغييرات ، غنية الأحداث ، لا يصح أن تغيب عن سِجل العطاء ، والتضحية ، والإبداع ، ليس في تاريخ الأدب الإسلامي وحده ، بل في تاريخ الأدب الإنساني كلِّه .

* * *



فهرس المصادر والمراجع

العربية :

١ ـ **أبحاث حول التعليم والتربية الإسلامية** : للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، إعداد المؤلِّف ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

٢ ـ **أبو الحسن علي الحسني الندوي الداعية الحكيم والمربّي الجليل** : للدكتور محمد اجتباء الندوي ، ن : دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م .

٣ ـ **أبو الحسن الندوي : الإمام المفكر الداعية المربّي الأديب** : لسيد عبد الماجد الغوري ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ٣ ، عام ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .

٤ ـ **الأدب الأردئي الإسلامي** : للدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، ن : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض .

٥ ـ **الأدب الإسلامي وصلته بالحياة** : للأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .

٦ ـ **أدب الرحلة** : للدكتور حسين نصَّار ، ن : مكتبة لبنان ـ بيروت .

٧ ـ **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام** : للعلاَّمة عبد الحي الحسني ، ن : دار ابن حزم ـ بيروت ، ط : ١ ، عام ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

٨ ـ **إقبال الشاعر الثائر** : للأستاذ نجيب الكيلاني ، ن : مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
٩ ـ **البيان والتبيين** : لأبي عثمان عمرو بن الجاحظ ، ت : د . درويش جويدي ، ن : المكتبة العصرية ـ بيروت ، ط : ١ ، عام ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .
١٠ ـ **تاريخ الطبري** : للإمام أبي محمد بن جرير أبي جعفر الطبري . ن : دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط : ١ ، عام ١٤٠٧هـ .
١١ ـ **تفسير القرآن العظيم** : للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، ن : دار الفكر ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٠١هـ .
١٢ ـ **تفسير القرطبي** : للإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي ، (ت : أحمد عبد العليم البردوني) ، ن : دار الشعب ـ القاهرة ، ط : ٢ ، عام ١٣٧٢هـ .
١٣ ـ **جامع الترمذي** : للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، (ت : صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ) ، ن: دار السلام ـ الرياض ، ط : ١ ، عام ١٤٢٠هـ.
١٤ ـ **الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردية** : للدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (الرياض) .
١٥ ـ **رجال الفكر والدعوة في الإسلام** : للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق .
١٦ ـ **رحلات العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي مشاهداته ـ انطباعاته ـ لقاءاته ـ محاضراته** : إعداد سيد عبد الماجد الغوري ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .

١٧ ـ **روائع إقبال** : للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢٥هـ ـ ١٩٩٩م .

١٨ ـ **روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة** : للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

١٩ ـ **سنن ابن ماجه** : للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد الربعي ابن ماجه القزويني . ن : دار السلام ـ الرياض ، ط : ١ ، عام ١٤٢٠هـ .

٢٠ ـ **سنن أبي داود**: للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السِّجستاني . ن: دار السلام ـ الرياض، ط: ١، عام ١٤٢٠هـ.

٢١ ـ **سنن الدارقطني** : للحافظ علي بن عمر أبي الحسن الدارقطني البغدادي ، (ت : السيد عبد الله هاشم يماني المدني) ، ن : دار المعرفة ـ بيروت ، ط : ١ ، عام ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .

٢٢ ـ **السنن الكبرى** : للإمام أحمد بن شعيب أبي عبد الرحمٰن النسائي ، (ت : د . عبد الغفار سليمان البغدادي ، وسيد كسروي حسين) ، ن : دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط : ١ ، عام ١٤١١هـ .

٢٣ ـ **سنن النسائي** : للإمام أبي عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان النسائي ، ن : دار السلام ـ الرياض ، ط : ١ ، عام ١٤٢٠هـ .

٢٤ ـ **السيرة النبوية** : للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام ، (ت : مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي) ن: دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ٢ ، عام ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .

٢٥ ـ **السيرة النبوية** : للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، (ت : سيد عبد الماجد الغوري) ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ٣ ، عام ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .

٢٦ ـ **شخصيات وكُتب** : للعلا مة أبي الحسن الندوي ، ن : دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

٢٧ ـ **شعب الإيمان** : للإمام أبي بكر أحمد بن حسين البيهقي ، (ت : محمد السعيد بسيوني زغلول) ، ن : دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط : ١ ، عام ١٤١٠هـ .

٢٨ ـ **الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفتُه** : للدكتور يوسف القرضاوي ، ن : دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .

٢٩ ـ **الشيخ أبو الحسن الندوي : بحوث ودراسات** : ن : مؤسسة الرسالة ـ ببيروت ، ودار البشير ، عمان ، ط : ١ ، عام ٢٠٠١م .

٣٠ ـ **صحيح البخاري** : للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ، ن : دار السلام ـ الرياض ، ط : ٢ ، عام ١٤٢١هـ .

٣١ ـ **صحيح ابن حبَّان** : للإمام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي ، (ت : الشيخ شعيب الأرناؤوط) ، ن : مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ط : ٢ ، عام ١٤١٤هـ .

٣٢ ـ **صحيح مسلم** : للإمام أبي الحُسين مسلم بن الحجَّاج بن مسلم القُشيري . ن : دار السلام ـ الرياض ، ط : ١ ، عام ١٤٢٠هـ .

٣٣ ـ **صفوة الصفوة** : لعبد الرحمٰن بن علي بن محمد أبي الفرج ابن الجوزي ، (ت : محمود فاخوري ومحمد رواس قلعه جي) ، ن : دار المعرفة ـ بيروت ، ط : ٢ ، عام ١٣٩٩هـ .

٣٤ ـ **الطريق إلى المدينة** : للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

٣٥ ـ **عمل اليوم والليلة** : للإمام أحمد بن شعيب النسائي ، (ت : د . فاروق حمادة) ، ن : دار الكلم الطيب ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢١هـ .

٣٦ ـ **الفردوس بمأثور الخطاب** : لأبي شجاع شيرويه بن شهر دار بن شيرويه الديلمي ، (ت : السعيد بن بسيوني زغلول) ، ن : دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط : عام ١٩٨٦م .

٣٧ ـ **قصص من التاريخ الإسلامي (للأطفال)** : للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، عام .

٣٨ ـ **قصص النبيِّين (للأطفال)** : للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، ن : مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ط : عام .

٣٩ ـ **كشف الخفاء** : لإسماعيل بن محمد العجلوني الجرَّاحي (ت : أحمد قلاَّش) ، ن : مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ط : ٤ ، عام ١٤٠٥هـ .

٤٠ ـ **كنز العمَّال في سنن الأقوال والأفعال** : للشيخ علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي ، ن : دائرة المعارف ـ حيدرآباد (الهند) ، ط : ١ ، عام ١٣٨٧هـ .

٤١ ـ **مجمع الزوائد** : للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي ، ن : دار الريان للتراث ـ القاهرة ، ط : ١ ، عام ١٤٠٧هـ .

٤٢ ـ **مختارات من أدب العرب** : للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، ن :

دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .
٤٣ ـ **مدخل إلى الأدب الإسلامي** : للدكتور نجيب الكيلاني ، ن : مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
٤٤ ـ **المستدرك على الصحيحين** : للإمام الحافظ محمد بن عبد الله أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، (ت : مصطفى عبد القادر عطا) ، ن : دار الكتب ٤٥ ـ **المسلمون في الهند** : للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .
٤٦ ـ **مسند أبي يعلى** : للإمام أحمد بن علي بن المثنَّى أبي يعلى الموصلي التميمي ، (ت : حسين سليم أسد) ن: دار المأمون ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٠٤هـ .
٤٧ ـ **مسند أحمد** : للإمام أحمد بن حنبل أبي عبد الله الشيباني . ن : مؤسسة القرطبة ـ القاهرة .
٤٨ ـ **مسند البزَّار** : للحافظ أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزَّار . (ت : محفوظ الرحمن زين الله) ن : مؤسَّسة علوم القرآن ، وبيت العلوم والحكمة ـ المدينة المنوَّرة ، ط : ١ ، عام ١٤٠٩هـ .
٤٩ ـ **مسند الشهاب** : للإمام محمد بن سلامة بن جعفر أبي عبد الله القُضاعي ، (ت : حمدي بن عبد المجيد السلفي) ، ن : مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ط : ١ ، عام ١٤٠٩هـ .
٥٠ ـ **مصنَّف ابن أبي شيبة** : للإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ، (ت: كمال يوسف الحوت) ، ن : مكتبة الرشد ـ الرياض ، ط : ١ ، عام ١٤٠٩هـ .
٥١ ـ **المعجم الأوسط** : للإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد

الطبراني ، (ت : طارق بن عوض الله بن محمد ، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسني) ، ن : دار الحرمين ـ القاهرة ، ط : ١ ، عام ١٤١٥هـ .

٥٢ ـ **المعجم الصغير** : للإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، (ت : محمد شكور محمود الحاج أمرير) ، ن : المكتب الإسلامي ـ بيروت ، ط : ١ ، عام ١٤٠٥هـ .

٥٣ ـ **المعجم الكبير** : للإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، (ت : حمدي بن عبد المجيد السلفي) ، ن : مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنوَّرة ، ط : ٢ ، عام ١٤٠٤هـ .

٥٤ ـ **من أعلام المسلمين ومشاهيرهم** : للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، (إعداد : سيد عبد الماجد الغوري) ، ن : دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

٥٥ ـ **منهج الفنِّ الإسلامي** : للأستاذ محمد قطب ، ن : دار الشروق ـ القاهرة .

٥٦ ـ **نحو مذهبٍ إسلاميٍّ في النقد والأدب** : للدكتور عبد الرحمٰن رأفت الباشا ، ن : دار الأدب الإسلامي ـ القاهرة ، ط : ٤ ، عام ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

٥٧ ـ **نظرات في الأدب**: للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، ن : دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

٥٨ ـ **النهاية في غريب الحديث** : للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ، ت : الطاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي ، ن : دار الفكر ـ بيروت ، ط : ١ ، عام ١٤١٨هـ .

الجرائد والمجلَّات :

العربية :

١ ـ **مجلَّة** « **الأدب الإسلامي** » : الشهرية الصادرة عن المقرّ الرئيسي لرابطة العالم الإسلامي في الرياض .

٢ ـ **مجلَّة** « **البعث الإسلامي** » : الشهرية الصادرة عن مؤسَّسة الصحافة والنشر في ندوة العلماء (الهند) .

٣ ـ **مجلَّة** « **ثقافة الهند** » : الصادرة عن مجلس الهندي للعلاقات الثقافية في نيودلهي (الهند) .

٤ ـ **صحيفة** « **الرائد** » : نصف الشهرية الصادرة عن مؤسَّسة الصحافة والنشر في ندوة العلماء (الهند) .

٥ ـ **مجلَّة** « **الصحوة الإسلامية** » : الفصلية الصادرة عن دار العلوم الإسلامية بحيدرآباد (الهند) .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

❋ ❋ ❋

ABUL HASSAN NADWI

STANDARD - BEARER OF ISLAMIC LITERATURE

By: Sayyid Abdul Majid Ghouri

العلامة أبو الحسن الندوي .... :

« نحن لسنا بأوَّلِ مَن دعا إلى إقامة مذهبٍ إسلاميٍّ في الأدب ، وإنَّما اقتفَيْنا آثارَ طائفةٍ من أعلام المسلمين ، وأدبائهم الموهوبين ، وقد كان أوَّلُ من كتب في هذا الموضوع ، ونبَّه إليه : فضيلةُ العالم العامِل الشيخ أبي الحسن النَّدْوي ، وذلك حين اختِيرَ عضواً في المجمع العلميِّ العربيِّ في دمشق . حيث قدَّمَ بحثاً دعا فيه إلى إقامة أدبٍ إسلاميٍّ ، والعناية به ، فكان أوَّلَ الدَّاعين إلى ذلك ، وطليعة المُنبِّهين إليه » .

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

(في كتابه : «نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد» ص : ١١٢)

هذا الكتاب

يعرِّف هذا الكتاب بجهود العلامة أبي الحسن الندوي في خدمة الأدب الإسلامي ، والتي قام بها عملياً وإبداعياً .

عرض المؤلِّف فيه آراء العلامة الندوي القيمة ، وأفكاره النفيسة ، وتوجيهاته السديدة التي وراءها اطلاعاته الواسعة ، وتجاربه العميقة ، وفراسته العالية ، وجهوده الحثيثة في الأدب الإسلامي .



9 789953 520216